جرازيلا

تأليف

ألفونس دى لامارتين

« تعريب »

« ابراهيم عزالدين الدمياطى »

تطلب من المكتبة التجارية بأول شارع محمد على بمصر

لصاحبها — مصطفى محمد

« المطبعة الرحمانية بالخرنفش بمصر »

obeikandl.com

إلى شباب مصر الناهض

إلى آباء وأمهات المستقبل

أهدى أول ثمر أفكاري الأولى

الدمياطي

obeikandl.com

لامارتين

هو ألفونس — مارى ، لويس دى پرا ،دي لامارتين،أحد مشاهير شعراء فرنسا . ولد بمدينة ماكون فى ٢١ اكتوبر سنة ١٧٩١ وتوفى بباريس فى أول مارس سنة ١٨٦٩ .

نشأ فى قصر والده يميلىّ معتنى به من والدة رحيمة لم تكن تطلب منه غير الصدق وطيبة القلب . وتعلم دروسه في كلية الآباء اليسوعيين ثم نزح إلى السفر فى أنحاء أوربا وعلى الأخص فى فى ايطاليا . الى أن سقطت امبراطورية نابليون بونابرت وأبعد الى جزيرة البه ، فالتحق لامارتين بالحرس الملوكى فى سنة ١٨١٤ . ولكن نابليون عاد الى فرنسا ، فخرج منها الملك لويس الثامن عشر الى بلچيكا ، وخرج اليها كذلك لامارتين حتى كانت موقعة واترلوو ، فعاد مع الملك ، ولكنه لم يبق طويلا،لانه اعتزل الخدمة.

قضى بعد ذلك بضع سنوات من حياة قلقه.ثم فى سنة ١٨٢٠ أرسل الي عالم الشعر مناجاته الاولى فما عتم الا وقد عرف قدره بين الشعراء العظام . وبعد ثلاث سنوات أتبعها بالمناجاة الجديدة فوفاة سقراط فآخر أغنية لتشايلد هارولد . وفى سنة ١٨٢٩ نشر

النغمات الشعرية الدينية ثم انتخب فى السنة التالية عضوا فى الأكاديمية الفرنسية . قام بعد ذلك بسفرة شائقة فى الشرق ولما عاد الى فرنسا انتخب نائبا . فلعب دورا هاما فى مجلس نوابها ، وكان موقفه فيه موقف الخطيب الشاعر الذى تسمو به رفعة ضميره وكرم قلبه عن الانتساب لاي حزب من الاحزاب . ثم نشر على التتابع : رحلته فى الشرق ، فتأملاته الشعرية فجوسلين، فسقوط ملاك ثم التفت الى التاريخ فألف فيه تاريخ الجيرو ندبين

رأس بعد ذلك الحركة الثورية ، وعند ماقامت الجمهورية فى سنة ١٨٤٨ صار عضوا فى الحكومة المؤقته ووزيرا للخارجيه . ومن آثاره في هذه الظروف موقفة ضد تطرف الثورويين حينذاك وخطبته الشهيرة التى ألقاها ضد العلم الأحمر

وقد اعتزل المترجم عالم السياسية نهائيا بعدالانقلاب الاخير للحكومة الفرنسية فى ديسمبر سنة ١٨٥١ . وكان من أهم مؤلفاته بعد اعتزاله هذا : المسارات وجنيفيف ، ونحات أحجار قصرسان پوان ، وجرازيلا وروفائيل ودروس فى آداب اللغة

وقد مضى لامارتين سنى حياته الأخيرة في باريس مهموما حزينا من قلة ثرائه ، فقبل فى النهاية من الحكومة الامبراطورية

عطاء من المال قدره نصف مليون فرنك فى سنة ١٨٦٧ . وقد توفى بعد ذلك بسنتين فى منزل صغير كانت خصصته له مدينة باريس بحي پاسى

أما لامارتين باعتباره شاعرا ، فقد وصف بأنه الشعر نفسه، وهذا يفيد أن الشعر كان غريزيا فى طبيعته ، وأنه المظهر الطبعى الصادق لعواطفه القلبيه . فلم يتقيد بمنهج قديم ، ولا باسلوب ثابت ، لان قريحته كانت تنفر من القيود ، فلا هو بالشاعر الوصاف ، ولا بالشاعر الفنى الذى يرى ويصور ، بل هو ذو الخيال الذى تتلاشى أمامه الخطوط ، وتخفت لديه الاصوات ، وتوشك الاشياء أن تفقد ماديتها ، هناك تتجلى أحلامه الطاهرة الشريفة، ويطفو حزنه اللطيف الرقيق .

قال لامارتين فى أبياته المشهورة .

(كنت أنشد ياإخوانى ، كما يتنفس الانسان)

يريد من هذا أن الشعر كان ضروريا لنفسه كما أن التنفس ضرورى للانسان . لهذا يعتبر أشعر الشعراء الفرنسيين .

أما دينه، فقد كان الشعور بالله ، ولكن ليس من الجهة التى تعزق فيها المباديء بين قلوب الخلق وعقولهم ، وانما من الجهة

التى ترتفع فيها نفوس الخلق كافة الى الله متوافقة متلاقية . وقد يرى البعض فى هذا الاعتقاد فكرا حلوليا ولكن ذلك لم يكن مقصودا للامارتين

أما فلسفته ، فنوع من الفلسفة الروحانيه لا تتجسم في مذهب معروف من مذاهب الروحانيين . وهى تآلف بين روح الشاعر والعالم يشمل الاستبشار العظيم والآمال اللانهائية

المعرب

oberkandl.com

جرازيلا

بدأ لامارتين قصة جرازيلا هذه بطريقة تشعر القارىء بأن في هذا الغرام شيئا من الحقيقة

قد يدرك القارىء في آخر القصة أن الشاعر لم يكن مغرما حقيقة فهو وان كان في سن الشباب التي تساعد على التهاب القلوب بنيران الحب ، الا أنه لم يكن مع تلك الفتاة المحبة في مستو واحد، ترك نفسه للفتاة تحبه دون أن يحبها حبا متكافئا ، رضى أن تعجب به ، وان يبهرها لطفه ، وهو ينظر الى ذلك بعين راضية، كأنه يراه حقا ، أو واجبا ، أو حلالا

أين هذا من حب الفتاة له ، ذلك الحب الذي كان ينمو كنمو النبات ، حتى اذا اكتمل ، كانت تتجلى فيه الرقة والطمأنينة حينا، والثقة والعفة حينا آخر

فكم كانت ترى هادئة في آلامها ، مطمئنة راضية حتى في حالات يأسها !

سيرى القارىء أن هذه الفتاة المسكينة ، كانت تفركى لاتتزوج بابن خالها ، لانها لا تستطيع أن تحبه ، تفر دون أن

تفوه بكلمة ، دون أن تشكو ، دون أن تؤنب ذلك الرجل الذى أحبته بكل قواها!

سيرى هذا المزيج المؤثر ، فى نفس الفتاة المسكينة ، مزيج الشمم والسذاجة

لهذا بكاها الشاعر كما يبكى الانسان على ذنب لايستطيع التكفير عنه !

انه لايحل للانسان أن يعبث بقلوب الفتيات الى هذا الحد ، فيبذر فيهن بذور الهوى ، حتى اذا ماتمت ، وباتت الواحدة منهن ألعوبة فى يده ، استمتع برؤية غرامها حينا ، ثم تركها الى اليأس فى النهاية

ولله در شاعرنا النابغة ، فقد أشار فى بعض قصائده الى هذا المعنى ، حيث قال :

فاتقوا الله فى خداع للعذارى فالعذارى قلوبهن هواء

الفصل الاول

١

عند ما بلغت الثامنه عشرة سنه عهدت بى عائلتى لعناية احدى قريباتى، وكانت قد دعتها أشغال لها الى إقليم التوسكانا بايطاليا، فسافرت اليه مع زوجها . كانت هـذه فرصة لسفرى وتخلصى من البطالة التى تهدد بخطرها الشباب فى منازل الآباء ومدن الريف حيث تتعطل ميول النفس الأوليه بعدم النشاط . فسافرت مدفوعا بهمة فتى يود أن يكشف له السفر الستار عن أجمل مشاهد الطبيعة والحياة

استمال فكرى أن أرى جبال الألب التى كنت أتطلع الى ثلوجها الدائمة من أعلى تل ميلى منذ حداثتى فأبصرها متلألئه فى نهاية الأفق ، فالبحر الذى طالما مثله السياح والشعراء لخيالى بصور جذابة ، فسماء ايطاليا التى كنت أتنسم دفأها وأدرك صفوها من أشعار جوت وعلى صفحات كورين

أتعرف تلك الأرض التي يزهر الآس فيها ؟

ثم آثار التاريخ الرومانى الخالدة ، تلك الآثار التي ملأت نفسى

حيث كنت قد انتهيت من دراستها قريباً ، وعلى الجملة ،فالحرية، والبعد الذى يكسو الأشياء عظمة وجمالاً ، وحوادث الأسفار الطويلة التى يتخيلها عقل الشباب حسبما يهوى ويستمتع بها سلفا، واختلاف اللغة والوجه والعادة الذى يجعل العقل كأنه يتعرف عالما جديداً ،كل هذا كان قد أخذ بمجامع فكري ، فبقيت نشوان ثملا كل أيام الانتظار الطويلة التى تسبق السفر . ومازال يتجدد فى هذا الثمل بتجدد هذا الجمال الطبعى على مدي أيامى فى ساڤوا وسويسرا وبحيرة چنيف وعلى ثلاجات السمپلون وعند بحيرة كوم وفى مدينتي ميلان وفلورنسا ، بحيث أنه لم يفارقنى الاعندعودتى ظهر ان أشغال قريبتي التى قضت بسفرها الى ليڤورن امتد زمنها لا الى أجل . عند ذلك فكروا فى إرجاعى الى فرنسا من غير ان أرى روما ونابلى ، وكأنهم أراد وابذلك اقتطاع آمالى من نفسى ، وقد أوشكت أن تتحقق . فَثُرْتُ ضد هذه الفكرة ، وكتبت الى والدى التمس منه السماح لى باتمام سياحتى، وصممت على أن أسبق المخالفة بالسفر فعلا دون أن أنتظر الرد ، وما كنت أتوقعة ساراً . وقلت فى نفسى :

« اذا أتى الرد بعدم السماح ، فسيأتى متأخراً ، اننى سأوبخ، ولكننى سأسامح ، اننى سأعود ، ولكنى أكون قد رأيت »

بعد أن راجعت ماليتى القليلة ، ورأيت أنها لا تكفي،علمت نفسى بوجوه قريب لوالدتى متوطن فى مدينة ناپلى ، وأننى لو سألته نقودا أعود بها لن يرفض من غير شك. فسافرت من ليڤورن الى روما مع عربة البريد ، فى ليلة صافية

قضيت الشتاء فى روما وحيداً ، فى حجرة صغيرة تطل على شارع مظلم ينتهي الى ميدان اسپانيا ، في منزل مصور رومانى قبلنى نزيلا فى عائلته

تعرفت برفيق فى الطريق ، فيما بين فلورنسا وروما . وكان قد حببنى اليه وجهى ، وحداثة سنى ، وتحمسى،وانفرادى فى بلاد أجهلها ، فصادقنى على عجل . وكان شابا جميلا ، فى مثل حداثتى يلوح عليه انه ابن أوقريب للمغنى الشهير داڤيد أكبر مغني ايطاليا وهو شيخ هرم ، مسافر معنا ليغنى آخر مرة فى مسرح سان شارل فى ناپلى . وقد كان يعاملنى كأنى ابن له . وكذلك فتاه ، فانه كان يرعانى بحفاوة وكرم دائمين، على أننى كنت أقابلهما بنهاوني وسذاجة صباي . ولم نكد نصل الى روما الا وأنا وهـذا الفتي مرتبطان بصداقة وثيقة

كان البريد إذ ذاك يقطع المسافة بين فلورنسا وروما فى ثلاثة أيام . فكان صديقى يعطف على فى الطريق كما أنه كان وسيطا لى

فى تعرف لغة القوم بالفنادق ، ويؤثرنى على نفسه ، فيقدم لى الطعام على المائدة ، ويحفظ لى أحسن محل فى العربة فى جواره ، واذا أخذنى النعاس ، كانت كتفه من غير شك وسادتى

وعند ما كنت أنزل من العربة فى مرتفعات التوسكانا أو السابين ، كان ينزل معى ، فيصف لى البلاد ويسمى لى المدن والقرى ويرشدنى إلى الآثار ، ويقطف لى الزهور الجميلة ، ويشتري ألذ الفاكهة من عنب وتين على طول الطريق فيملأ بها يدي وقبعتى . وكان دافيد يلحظ تودد فتاه المسافر إلي أنا الفتى الغريب ، فيتضاحكان أحيانا وهما ناظران إلى نظر عطف وطيبة قلب كأن بينهما سرا

وصلنا روما ليلا ، وقد نزلت معهما فى نفس الفندق الذى نزلا فيه ، ثم أرشدت إلى حجرتى ، فلم أفق من نومى إلا على صوت صديقى الفتى ، فانه كان يطرق بابى ويدعونى إلى الفطور ، فعجلت بارتداء ملابسى وهبطت إلى بهو الفندق حيث المسافرون مجتمعون ، ثم أخذت أبحث بينهم على رفيق سفرى لأحييه ، فما وجدته وذهب بحثي سدى . أشرقت وجوه المسافرين بالضحك جميعهم ، لأنى بدلا من أن أجد ابن دافيد أو قريبه كما كنت أعتقد ، لمحت فى جانبه وجه فتاة رومانية ذات صباحة وهندام

أنيق . شعرها اسود مضفور كعصابة تحيط بجبينها يمسك بها من الخلف دبوسان من الذهب فى رأس كل منهما لؤلؤة ، كزى قرويات تيفولى

تلك كانت صديق ، الذى بمجرد وصوله الى روما عاد فتزىّ بزي جنسه اللطيف . وكان يجب فيما مضى أن أشك فى الأمر ، بما كنت أراه فى نظرتها من الحنو ، وابتسامتها من اللطف ، ولكننى للأسف لم يخامر نفسى أي شك فيها . عند ذلك علتها حمرة الخجل ، وقالت لى :

— « إن الزى لايغير القلب ، ولكنك لن تتوسد كتفى بعد ، وبدلا من أن تتقبل أزهارى ، فانت الذى ستقدمها إلى . إنك ستتعلم من هذه الحادثة أن لاتغتر بظواهر الصداقة فى مستقبل الايام ، اذ ربما تخفى الظواهر أموراً أخرى »

كانت الفتاة مغنية وتلميذة محبوبة لدافيد ، وكان يستصحبها معه أينما ذهب ، ويعاملها كأب أكثر منه معلما . وقد يلبسها ثوب رجل فى السفر دفعا للانتقاد ، ولم يكن من غير شك يغار من ممازحاتنا الحلوة الطاهرة ، التى كان يسمح بوقوعها فيما بيننا

٢

قضى دافيد وتلميذته بضعة أسابيع في روما . وحدث في

اليوم الثاني من وصولنا اليها ، أن عادت الفتاة الى ارتداء ملابس الرجال ، ثم اقتادتني الي سان پيير ، فالكوليزية ، وفرسكاتي ، وتيفولي ، وألبانو ، لزيارة تلك الآثار وبواسطتها تسنى لى أن أنجو من التراجمة وقصصهم المتعبة ، فانهم يزهقون النفوس بها ، ويفقدوننا الشعور بجمال الاشياء ، إذ أنشودتهم طويلة مملة ، ممتلئة بالاسماء والتواريخ

كان اسم الفتاة كاميلا ، ولم تكن متعلمة كثيرة العلم ، الاأنها لنشأتها فى روما ، كانت تعرف بطبيعتها مناظرها الجميلة ، وآثارها البديعة ، التى كانت تؤثر فى نفسها منذ صغرها . فكانت تقتادني ، دون أن تفكر فى الامر ، الي أجمل الاماكن ، وفى أوفق الساعات ، لمشاهدة بقايا المدينة القديمة

ففى الصباح ، كنا نذهب للاستظلال بأشجار الصنوبر العظيمة على جبل پينشيو ، وفى المساء ، الى الظلال الوارفة لأعمدة سان پيير ، وفى ليالي القمر ، داخل الاسوار الصامتة للكوليزيه ، وفى بعض أيام الخريف الجميلة ، إلى ألبانو ، وفرسكاتى وهيكل العرافة ، حيث تتفجر شلالات تيفولى ، وتسيل مياهها ، وتتناثر قطراتها البلورية

كانت كاميلا مبتهجة ، ضاحكة ، مغتبطة كتمثال أبدى للشباب قائم وسط آثار الدهر والموت

فبينما أنا أسبح فى بحار الخيال ، جالسا على حجر ، كانت كاميلا ترقص فوق قبر تشيشيليا ميتيلا وتغنى بصوتها الجهورى، كما لو كانت تغنى على المسرح ، فتردد صداه قباب قصر دقليديانوس الرهيبة

ونعود عند المساء الى المدينة ، وعربتنا ملأى بالزهور وبقايا التماثيل ، لنلحق بداڤيد الذي كانت تمنعه عن مرافقتنا أشغاله فى روما ، فنمضى بقية يومنا فى المسرح فى لوجته

مارأيت هذه المغنية التى كانت أكبر منى سنا، ببضع سنوات، تظهر نحوى أي عاطفة أكثر من عاطفة الصداقه الرحيمة ، وما كنت جريئا حتى أبادلها أنا نفسى غير هذا الشعور، فانى ماشعرت بسواه نحوها على الرغم من جمالها وشبابى . فلباس الرجال الذى كانت ترتديه ، ومؤانستها الممتلئة رجولية ، وصوتها الجهورى الذى يتشابه بصوت الرجال ، وما كان لها من الحرية فى حركاتها، كان يؤثر فى نفسى ؛ فلم أر فيها غير فتى جميل ، صديق أو رفيق

٣

وعندما سافرت كاميلا بقيت في روما وحيداً لامعرفة لى بأحد اللهم الا تلك البقايا والآثار والأطلال التي عرفتي بها

وكان من عادة الشيخ المصور الذى أنزلنى فى داره، أن لا يبرح محل عمله ، الا فى يوم الأحد ، حيث يذهب للصلاة مستصحباً زوجه وابنته ، وكانت فتاة فى السادسة عشر من عمرها مجتهدة كأبيها

وكان منزل هذه العائلة اشبه بدير من الأديرة ، لا ينقطع فيه عمل المصور ، إلا لأكلة زاهد ، أو للصلاة . وكانت راحة العائلة الوحيدة ، أنهم يهبون للصلاة معا ، عندما تنطفىء أشعة الشمس على نوافذ حجرة المصور الفقير، وتدق النواقيس فى الأديرة القريبة مؤذنة بصلاة الغروب ، هذا الوداع الشجى للنهار فى ايطاليا، فيرتلون للعذراء، ويترنمون بالأدعية للقديسين، حتى تتلاشى أصواتهم بعد أن يضعفها النعاس ، فى تمتمة خافتة ، أشبه بأصوات الأمواج التى تهدأ على شاطىء البحر ، عند سكون الهواء فى المساء

كنت أحب هذه الطمأنينة والنسك ، فى مشهد يختتم به يوم شغل لهذه النفوس الثلاث فتصعد دعواتها الى السماء ، كأنها تستريح من تعب يومها . وكان ذلك يحملنى على تذكر منزل أبى حيث كانت تجمعنا والدتي كذلك للصلاة في المساء طوراً فى حجرتها وآخر في المماشى الرملية فى حديقتنا الصغيرة فى ميلى، وقت غروب الشمس حتى كنت أشعر أننى فى منزل أبى ، وانا فى هذا المنزل

الغريب ، بما كنت أجده من نفس العادات والأعمال والدين . إنني مارأيت حياة أكثر انعكافا وانقطاعا عن غيرها اكثر عملا وقداسة من حياة منزل المصور الروماني

كان للمصور أخ لايسكن معه ، يحترف تعليم اللغة الايطالية للكبار من الأجانب ، الذين يحضرون لقضاء فصل الشتاء في روما وكان هذا الرجل اكثر من معلم لغة ، كان كاتبا من الدرجة الأولى. حديث السن ، ذا وجه جميل وخلق شريف . وقد ظهر ظهوراً عظيما في الحركات الثورية التي قام بها الجمهوريون من الرومان لاحياء الحرية في بلادهم . وكان خطيبا من خطباء الشعب ، لعب دوراً هاما في احياء روما القديمه ، التي بعث روحها الفرنسيون ، وأخمدها القائد النمسوي ماك وأهل نابلي

فكان خطيب الشعب في الكابيتول، وحامل علم الاستقلال، وقد شغل وظيفة من أكبر الوظائف في الجمهورية . ولما طورد واضطهد وسجن في الحركة الرجعية للثورة ، لم ينل نجاته الا عند ماجاء الفرنسيون ، الذين نجوا الجمهورين وضحوا الجمهورية

كان هذا الروماني يحب فرنسا الحرة المتمدينة الى درجة العبادة ، ويمقت الظلم والجور ، وبما أنني كنت شابا ، فقد كان

هـذا شعورى أيضاً . فـلم يمض زمن طويل حتى ظهر توافق أفكارنا . فبينما هو يرى فى حماس الشباب الفطري ، وتأثرى لنغمات الحرية عنـد ما كنا نقرأ معا ، قصائد مونتى الملهبة ، أو المشاهـد الجمهورية لألفييري إذا به يرى إمكان مكاشـفتى بآماله ، فصرت صديقه أكثر من تلميذه

٤

حقا إن الحرية أقصى آمال الانسان ، فهي أول أحلام الشباب كما أنها لاتختفي فى النفوس ، إلا حين يبلى القلب ، وينحط الضمير ويتناوله اليأس . فلا توجد نفس فى العشرين من سنيها ، الا وهى جمهورية ، ولا يوجد قلب ناله البلى ، الا وهو ذليل

كم من مرة ذهبنا معا ، وجلسنا على تل الڤيلا بانفيلى حيث ترى روما وقبابها ، وآثارها ، وتيـبرها الذى يدب ساكنا تحت حنايا كبرى روتو ، وحيث يسـمع خرير فواراتها المتأوه ، ووقع أقدام شعبها الذى يكاد لايسمع ، سائرين بين طرقاتها المقفرة . كم من مرة سكبنا فيها دموعا حرى ، حزنا على مصير هذا العالم المسلم لكل المظالم ! فلم تكن الفلسفة والحرية لتوجدا فى فرنسا وايطاليا برهة ، الا لتدنسا ، وتخانا ، وتضطهدا فى كل مكان !

٥

درست روما ، بتاريخها وآثارها ، وأنا تحت هذه التأثيرات. فكنت أخرج فى الصباح وحيدا قبل أن تشغل حركة المدينة عقل المتأمل ، متأبطا كتب المؤرخين والشعراء ووصاف روما ، وأجلس أو أطوف بين الآثار المقفرة للفوروم أو الكوليزيه أو فى الضواحى الرومانية ، وأقرأ تارة وأنظر أو أفكر أخرى

هكذا درست روما درسا جديا عمليا ، فكان هذا أحسن تاريخ درسته . فبدلا من أن تملنى القرون الماضية ، أصبحت في نفسى ملكة لأملها . ولم أتبع فى هذا الدرس غير هواي فأذهب حيث يشاء : من روما القديمة الى روما الحديثة ، من البانثيون إلى قصر ليون العاشر ، من منزل هوراس في تيبور الى منزل روفائيل ، بين الشعراء والمصورون ورجال التاريخ والعظماء علي ، فلا استوقف منهم إلا من يهمنى تاريخه في ذلك اليوم

وعند الساعة الحاديه عشرة أعود الى صومعتي الصغيرة فى منزل المصور للغداء ، فآكل على منضدة شغلى قطعة من الخبز والجبن وأشرب بعضا من اللبن وأنا أقرأ ، ثم اشتغل وأكتب حتى الساعة المعتادة للعشاء الذي تعده لنا زوج المصور وابنته ، وأخرج بعد الأكل لرحلات أخرى وأعود فى حلك الظلام .

ويختم هذه الأيام الهادئة بضع ساعات أمضيها مع عائلة المصور ، نتجاذب أطراف الحديث ، ثم مطالعات أقطع بها جزءاً عظيما من الليل

لم أشعر إذ ذاك بحاجة الى مخالطة غيرى ، فكنت أتمتع بوحدتى وفى روما ونفسى كفايتى

هكذا قضيت شتاء طويلا من شهر اكتوبر إلى إبريل دون أن يأتى علي يوم أتعب منه أو أمل ، ولذكرى هذه الأيام كتبت بعد ذلك بعشر سنوات شعراً عن تيبور

٦

إنى الآن حين أبحث بين أفكاري عن آثار روما ، لا أجد سوى أثرين يمحوان كل شيء آخر ، أو على الأقل يفوقانه ، هما الكولوزيه هذا البنيان الهائل ، بنيان الشعب الروماني ، وسان بيير أحسن آثار الكاثوليكية

فالكولوزيه هو الأثر الهائل لشعب فاق البشر ، شعب كان يشيد لفخره وملاذه الوحشية ، آثاراً تسع أمة بأسرها ، آثاراً تضارع أعمال الطبيعة ضخامة وأمدا ، فلقد يجف التيبر بين شواطئه الطينية ولا يزال الكولوزيه يعلوه

وسان پيير هو عمل فكرة ،عمل دين،عمل الانسانية بأسرها في عصر من عصور العالم : فلم يكن بنيانا شيد ليسع شعبا حقيراً : بل معبداً خصص ليسع الفلسفة والصلاة والعظمه بأكملها ، وكل عقل الانسان :

وما كأن الجدران تعلو وتعظم بنسبتها للشعب بل بنسبتها الى الله :

قد أدرك ميكيل آنج وحده معنى الكاثوليكية ، فاعطاها فى سان پيير أعظم وأبدع تعبيراتها ، فسان پيير هو حقيقة التأليه فى الأحجار ، حقيقة التجلى الهائل لدين المسيح

كان مهندسو الكاتدرائيات القوطية برابرة عظاما ، ولكن ميكيل آنج كان وحده فيلسوفا فى ادراكه . سان پيير هو المسيحية الفلسفية حيث يطرد منها المهندس الاطمى الجهل ، ويطلق الجمال والتناسب والضوء بامواج لا تنضب

ان جمال سان پيير روما الذى لا يضارع هو أنه معبد لم يخصص إلا ليكسو الشعور بالله كل ما له من رونق وجمال ، فلقد تفنى المسيحية ، ولا يزال سان پيير المعبد العام ، الأبدى ، العلمى لأى دين يخلف دين المسيح ، ما دام هذا الدين يليق بالانسانية وبالله :

إنه المعبد الاكثر معنوية الذى شيدته القريحة البشرية بالهام إلهى ، فلا يعرف المرء عند دخوله ، أهو معبد قديم أم حديث ، يدخله رجال الأديان المختلفة باحترام واحد فيشعرون بانه معبد لايمكن أن يسكنه الا الشعور بالله ، ولن يملأه أى شعور آخر .

استبدل الكاهن ، وأرفع المذبح والصور والتماثيل ، فلن يتغير شىء منه ، بل يبقى على الدوام بيت الله : وبالأحرى فان سان پيير هو وحده رمز عظيم لتلك المسيحية الابدية التى تحوى فى أدبها وقداستها ، بذور التطورات المتتالية للفكرة الدينية ، لجميع القرون والناس . فتنكشف للعقل ، كلما زادها الله نوراً ، وتتصل به فى الضوء ، وتتسع وتعلو متناسبة مع العقل البشرى ، تنمو على الدوام ، وتجمع الشعوب على وحدة العبادة . وتصنع من أشكال الألوهية إلها واحدا ، ومن جميع القوانين شريعة واحدة ومن جميع الشعوب انسانية واحدة !

فميكيل آنج هو موسى الكاثوليكية الهائلة ، كما سيفهم يوما من الأيام ، بنى الفلك الأبدى للأزمنة المستقبلة ، ينشيون العقل المؤلَّه .

٧

أخيراً بعد أن اكتفيت من روما ، تاقت نفسى لرؤية

ناپلى وكان قبر ڤرچيل ومهد التاس هما اللذان جذبانى اليها أكثر من أى شىء آخر ، اذ لم تكن البلاد عندي الا رجالها فناپلى هى ڤرچيل والتاس . وكان يخيل لى أنهما كانا عائشين بالأمس ، وأن رفاتهما مازالت ندية

سافرت الى ناپلى فى أخريات مارس ، وكان برفقتى تاجر فرنسى ، اشترك معى فى العربة لتخف أجرة السفر على كل منا وعلى مسافة من ڤلترى التقينا بعربة بريد روما الى ناپلى ، مقلوبة على الطريق وقد قتل سائقها وجواداها ، وحمل المسافرون الى كوخ مجاور ، وكانت الرسائل ممزقة وقطعها تتطاير فى الهواء . وسمعنا طلقات ناريةورأينادخانها يتصاعد عن بعد ، متبادله بين اللصوص الذين انثنوا الى جبال أبروز ، وبين فصائل من الخيالة والمشاة الفرنسية المعسكرة فى تراسين ، وكانت تطاردها

قابلنا فى طريقنا مخافر عديدة من الفرسان الفرنسية والناپوليتانية ، متدرجة على طول الطريق

هكذا كان الدخول فى مملكة ناپلى اذ ذاك

كان على هذا التلصص مسحة سياسية ، اذ كان مورا متوليا الحكم ، وبلاد كالابريا لاتزال تقاومه ، أما فرديناند الملك الذى انسحب الى صقلية ، فكان يساعد بنقوده رؤساء العصابات فى

الجبال . وكان فرا ديافولو الشهير يقاتل على رأس هذه العصابات، على أن أعمالهم الحربية كانت أنواعا من الاغتيالات . واننا لم نجد الأمن والنظام الا على مقربة من ناپلى .

وصلت ناپلى أول ابريل ، حيث لحقنى بعد بضعة أيام شاب من سنى ، كانت تربطنى وإياه صحبة أخوية من عهد المدرسة ، اسمه آيمون دى ڤيريو وقد اختلطت حياته بحياتى من أول ميلاده إلى وفاته ، لدرجة أن صارت كل من حياتينا جزءا من الأخرى ، وكنت أذكره دائما فى حديثى أينما ذكرت نفسى ...

حادث

١

عشت فى ناپلى نفس عيشة المشاهدة التى قضيتها فى روما عند مصور ميدان اسپانيا، ولكن بدلا من قضاء نهارى بين الآثار القديمة ، كنت أقضيه على شواطىء خليج ناپلى أو على أمواجه ، ثم أعود عند المساء الى الدير القديم ، حيث كنت أسكن فى صومعة صغيرة فى أعلاه بفضل قريب والدتي . وكانت شرفتها الملأى بالزهور والنباتات الزاحفة ، تطل على البحر وعلى الڤيزوف وعلى كستلامار وسوارتنا.

كنت أرى حينما يصفو أفق الصباح منزل التاس الابيض يلوح عن بعد ، معلقا كعش الطائر فى أعلى الشاطىء الصخرى ذى اللون الاصفر والانحدار العمودى . كان قلبى يبتهج لهذا المنظر ، ويصل بريق ضوء هذا المنزل الى أعماق نفسى ، وكأنه شعاع من المجد يسطع على شبابى وخمول ذكرى

فكنت أذكر حياة هذا الرجل العظيم التى تشبه حياة هومبروس ، وقد خرج من السجن واضطهده حسد الصغار ونميمة الكبار ، وقد أهين حتى فى قريحته وهى ثروته الوحيدة ، فعادالى سورانتا طلبا لبعض الراحةأو الشفقة والحنان ، وتقدم الى أخته متخفيا فى زى سائل ، ليختبر قلبها ويرى اذا كانت تعرفه هى على الاقل ، تلك التى أحبته كثيرا : وقد روى المؤرخ :

« إنها عرفته فى الحال رغما عن اصفرار المرض الذى كان يعلو وجهه ، ورغما عن لحيته البيضاء ومعطفه البالى ، فعانقته بشفقة ورحمة أكثر من التى كانت تعانق بهما أخاها ، لو كانت وجدته مرتديا ملابس أحسن رجال بلاط فِرَّارَا المطرزة بالذهب . فاختنق صوتها بالعبرات وضمته الى صدرها . ثم غسلت له قدميه ، وهيأت له أفخر الطعام ، ولكنهما لم يستطيعا تناول شىء مما أعد

لامتلاء قلبيهما بالدموع فقضيا يومهما يبكيان صامتين ، ناظرين الى البحر ، يتذكران طفولتهما

٢

فى يوم من أوائل الصيف ، عند مايشبه خليج نابلى وهو محاط بالتلال ، وبمنازله البيضاء ، وصخورة المغطاة بالكروم ، المحيطة ببحرة الشديد الزرقة ، كأسا أخضر يعلوه الزبد ، تغطى آذانه وجوانبه الغصون الخضراء المتدانية . كان ذلك أوان ابتعاد صيادى البوزيليب عن الارض فى أمان ، فيجولون البحر ويصيدون الاسماك ليلا على بعد فرسخين أو ثلاثة ، بالقرب من صخور كاپرى وپروشيدا وايشيا وفى وسط خليج جايت

ويحمل بعضهم مشاعل من القطران ، يوقدونها لخديعة الاسماك التى تصعد الى سطح الماء ظانة أن الشمس أشرقت . فيجلس لذلك غلام فى مقدم المركب ، ويميل المشعل بهدوء على الماء ، بينما يحدق الصياد بنظره ليرى فريسته ويلقى عليها شباكه .

تنعكس هذه الأنوار الحمراء فى أخاديد طويلة متعرجة على سطح البحر ، ويزيد اهتزاز الامواج بريقها ، وتتعاكسها الأمواج الى أقصى ماتعكسه أول موجة الى التاليات لها

٣

كنت أقضى أنا وصديق ساعات كاملة جالسين على صخرة أو على الأطلال الندية لقصر الملكة چان ، نرقب هذه الأنوار الغريبة ، ونحسد الصيادين الفقراء على حياتهم التوكلية التى لا يشعرون فيها بقلق

علمتنا الشهور التى قضيناها فى ناپلى ،وعلمنا اختلاطنا بالعامة أثناء ترددنا على القرى والبحر يوميا، لغة البلاد التى للحركات والنظرات فيها مكان أعظم مما للكلمات

ولقد نحسد هؤلاء المتسولين السعداء ، الذين تزدحم بهم الأرصفة والشواطىء ، لميل طبيعتينا إلى الفلسفة ، ومللنا الاضطرابات الحيويه الباطلة قبل رؤيتنا لها

كانوا يقضون نهارهم فى ظل مراكبهم الصغيرة ، يستمعون قصائد مغنيهم المتنقلين ، ويرقصون التارنتا مع فتيات طبقتهم فى المساء تحت الكروم التى على الشاطىء..وكنا نعرف عاداتهم وأخلاقهم وطباعهم أكثر من معرفتنا للعالم الراقى فى ناپلى ، فما كنا نختلط به قط . وكانت هذه المعيشة تسرنا ، وتسكن فينا حركات النفس المضطربه التى تبلى بلاجدوى عقول الشبان ، قبل الساعة التي يدعوهم فيها مستقبلهم للعمل أو التفكير

كان صديق فى العشرين وكنت فى الثامنة عشرة ، كلانا في هذا العمر الذى يسمح فيه بخلط الأحلام بالحقائق . قررنا التعرف بالصيادين والذهاب معهم فى مراكبهم لنعيش كما يعيشون بضعة أيام . إذ كان يخيل لنا ، أن هذه الليالى الدفئة المضيئة ، المنقضية تحت الشراع فى هذا المهد المتمايل من الأمواج ، وتحت هذه السماء الهائلة المنارة بآلاف النجوم ، هى من أغرب ملاذ الطبيعة التى يجب مفاجئتها لنعرفها ، كى نقصها لغيرنا على الأقل

ولما كنا حرين ، ليس لأحد أن يحاسبنا على أعمالنا ، نفذنا ماأملناه فى اليوم التالى . فصادفنا حيث كنا سائرين على شاطىء المارچلينا الذى يمتد تحت قبر فرچيل ، أسفل جبل اليوزيليب ، وحيث يضع صيادو نابلى زوارقهم على الرمال ويصلحون شباكهم ، رجل شيخ ، مازال قوى البنية رغما عن كبر سنه ، كان يضع عدده فى زورق فى مقدمه تمثال صغير للقديس فرنسوا . ورأينا غلاما فى الثانية عشرة يضع فى الزورق رغيفين وبعضا من الجبن المجفف والتين وقدرا به ماء

أعجبتنا هيئة الشيخ والصبى ، وبدأناهما بالحديث . فابتسم الصياد حين عرضنا عليه أن يأخذنا معه بصفة مجذفين وقال :

— ليست أيديكما بالأيدى الخشنة التى تصلح للتجذيف ،

فانها عملت لتقبض على الاقلام لا على الخشب » فاجابه صديق :

— نحن فتيان ، ونريد أن نجرب كل الحرف قبل اختيار أحدها ، وقد أعجبتنا مهنتك ، لانها تعمل تحت السماء وفوق الماء » فقال الصياد :

— صدقتما ، فهذه مهنة تسر القلب وتجعل النفس تؤمن برعاية القديسين ، وانما الصياد تحت رعاية السماء المباشرة ، اذ لا يعرف المرء من أين تأتى الموجة أو الريح . فالمبرد فى يد الصانع والغنى والجاه فى يد الملك ، ولكن الزورق فى يد الله! »

زادت هذه الفلسفة الغريبة التى قالها الشيخ فى رغبتنا فى النزول معه . فوافق بعد امتناع طويل ، واتفقنا على اعطائه قطعتين من النقود الفضية كل يوم ، مقابل تعليمنا وغذائنا . ولما تم هذا الاتفاق ، أرسل الصبى الى المارچلينا ليحضر طعاما من النبيذ والخبز والجبن المجفف والفاكهة

وعند ما خيم الظلام ، ساعدناه في انزال زورقه الى الماء ، ثم أقلعنا

٤

ما كان أجمل الليلة الأولى :

كان البحر هادئاً ، كبحيرة محاطة بالجبال فى سويسرا . وكنا نرى كلما ابتعدنا عن الشاطىء ، ألسنة الانوار المنبعثة من نوافذ القصر وأرصفة ناپلى ، تتلاشى تحت الأفق المظلم ، ولم تبق الا الفنارات تضىء الشاطىء ، ثم مازال أن محا ضوءها العمود النارى الخفيف المتصاعد من فوهة الڤيزوف

وبينا كان يرمى الصياد شباكه ويخرجها ، والغلام يلعب بجفونه الكرى تاركا مشعله يضطرب فى يده ، كنا نجذف من حين لآخر ، ثم نستمع مسرورين تساقط قطرات الماء من مجاذيفنا ، توقع على البحر نغمات شجية ، بين السكون الهائل ، كما يتساقط اللؤلؤ فى حوض من الفضة

وبعد أن عرجنا رأس البوزيليب واخترقنا خليج البوزول وخليج بايا وعبرنا قناة خليج جايت ، بين رأس ميزين وجزيرة پروشيدا ، صرنا وسط البحر الشاسع ، وأخذ النعاس يلعب بجفوننا ، فنمنا تحت مقاعدنا بجانب الغلام . غطانا الصياد بالشراع ثم استغرقنا فى النوم يهزنا تمايل الزورق الهادىء

ولما استقظنا ، كانت الشمس قد صعدت أفق السماء وعكست على البحر ألسنتها النارية ، وسطعت أشعتها على منازل بيضاء على شاطىء لانعرفه . وكان الشراع يضطرب فوق رؤوسنا بنسيم

خفيف آت من هذه الجزيرة ، فيحملنا من صخرة الى صخرة ومن خليج لآخر . كان هذا الشاطىء هو الشاطىء المدبب المنحدر لجزيرة ايشيا البديعة ، التى سكنتها طويلا فيما بعد ، وأحببتها كثيرا . وكانت هذه أول رؤيتى لها ، سابحة في الضوء ، خارجة من البحر ، ومتلاشية فى زرقة السماء ، مفتحة كما يتفتح حلم الشاعر أثناء نوم ليلة صيف خفيف !

٥

جزيرة ايشيا ، التى تفصل خليج جايت عن خليج ناپلى ، والتى تفصلها قناة ضيقة عن جزيرة پروشيدا ، عبارة عن جبل واحد ، غرزت قمته البيضاء العالية ، أسناتها المقصفة فى السماء ، وتغطت جوانبه الفجائية المنحدر المحفورة بالاخاديد وحياض السيول السريعة ، من أعلاها لأسفلها بأشجار الكستنه الداكنة الخضرة . وتحمل سفوحه القريبة من البحر المنحنية فوق الامواج ، أكواخا ومنازل قروية وقرى صغيرة تكاد تغطيها الكروم

ولا يليق بأى منزل من هذه المنازل المعلقة على منحدرات الجبل ، والمختبئة بين الأخاديد ، والمتدرجة فوق سفوحه ، والبارزة بين كرومه ، والمجاورة لغابات الكستنه ، والمظللة بأشجار الصنوبر ،

والمحاطة بأقواس خشبية بيضاء تتدلى من فوقها الكروم ، الأأن يكون المسكن الخيالى لشاعر أو عاشق :

لم تمل عيوننا مشاهدة هذا المنظر . وكانت الاسماك متوفرة عند الشاطىء ؛ وقد اصطاد منها الصياد كثيرا طول الليل ، فنزلنا فى أحد خلجان الجزيرة لنتزود بالماء من ينبوع صغير على مقربة من الشاطىء ، ولنستريح تحت الصخور

وعند الغروب ، عدنا الى ناپلى نائمين على مقاعدنا ، فساعدنا الصياد والغلام فى شد الزورق على الرمال ، ثم حملا سلات السمك الى المنزل الصغير الذى يسكناه تحت صخور المارچلينا

عدنا فى اليوم التالى لمهنتنا الجديدة بكل سرور وهكذا ردنا كل بحر ناپلى ، فزرنا جزيرة كاپرى ، حيث لايزال العقل يشمئز من ظل تيبير ، وكوم ، ومعابدها المدفونة تحت أشجار الغار الكثيفة وأشجار التين البرية ، وبايا ، وأما كنها العابسة ، التى يخيل أنها هرمت وشابت كهؤلاء الرومان الذين ظللت شبابهم وملاذهم قديما وپورتتشى وپومپيى ، الضاحكتين تحت لاقة ، القيزوف ورماده وكستلامار ، ذات غابات الغار العالية السوداء ، التى تنعكس فى البحر فتعطى ، أمواجه ، التى يرتفع خريرها بين الشاطىء ، حضرة معتمة

وكان البحار العجوز يعرف في كل مكان عائلات من الصيادين تنزل عندها حين يضطرب البحر ، ويعوقنا عن العودة الى ناپلى

هكذا قضينا شهرين لم ندخل فيهما فندقا . فعشنا فى الهواء الطلق ، بين العامة ، عيشتهم البسيطة . صرنا من العامة كي نزداد تقربنا من الطبيعة ، إذ كنا نرتدى لباسهم تقريبا ، ونتكلم لغتهم . وكانت بساطة عاداتهم تكاد تكشف لنا عن سذاجة شعورهم .

لم يكلفنا هذا التغير شيئاً . فقد تربينا فى القرى أثناء زوابع الثورة التى أفنت وفرقت شتات عائلاتنا.

عشنا فى صبانا عيشة القروى ، صديق فى جبال جريزيفودان عند مرضع عالته مدة سجن والدته ، وأنا على تلال الماكونيه فى المسكن الصغير البسيط الذى جمع فيه والدى ووالدتى شتات عائلتهما المهددة . ولا فرق بين راعى جبالنا أو فلاحها وبين صياد خليج ناپلى ، سوى اختلاف المنظر واللغة والحرفة. فالخط والموجة يلهمان نفس الافكار للذين يحرثون الارض والماء؛ والطبيعة تخاطب الذين يعاشرونها ، سواء على الجبل أو البحر ، بلسان واحد ؛ وكنا نشعر بذلك .

فاننا لم نحس بين هؤلاء الرجال البسطاء ، بأننا غيرنا بلادنا ،

اذ الطبائع المتماثلة قرابة بين الناس.

وكان تماثل حياتنا الجديدة يسرنا ويخدرنا. وكنا نرقب انتهاء الصيف واقتراب أيام الخريف والشتاء، التى يتحتم علينا بعد انقضائها أن نعود الى وطننا. اذ عائلاتنا القلقة، بدأت تطلبنا، فكنا نبعد بقدر امكاننا فكرة السفر ونتلذذ بتصورنا أن هذه الحياة لن تنتهى

٧

جاء سبتمبر، وابتدأ بأمطاره ورعده. فخشن البحر، واصبحت مهنتنا، التى ازدادت صعوبة علينا، خطرة فى بعض الاحيان. ورطب الهواء، وأزبدت الامواج، وكثيرا ما كانت تبللنا

فاشترينا لذلك معطفين من الصوف الخشن من التى يلبسها بحارة نابلى ومتسولوها فى الشتاء على اكتافهم، ويتدلى الكمين الواسعين بجانب الذراعين المجردين، وتحمى قلنسوة المعطف رأس البحار من المطر والبرد اذا وضعها على رأسه، أو تترك الريح وأشعة الشمس تتلاعب بشعره المبلل اذا أرسلها على كتفه.

أقلعنا فى يوم من المارجلينا، وكان البحر هادئا، لاتشوب صفوة ريح، لنصيد سمك الطونة عند شاطىء كوم، حيث يقذف

به التيار فى هذا الفصل. وكان ضباب الصباح الأحمر يغطى الشاطىء، منذرا بزوبعة عند المساء. ولكنا كنا نأمل أن نسبقها، ونعرج بعد رأس ميزين قبل أن يضطرب بها البحر

كان الصيد كثيرا، وأردنا أن نطرح بعض شباك أخرى، ولكن الريح فاجأتنا من قمة الأپوميو، وهو جبل عظيم يعلو ايشيا. فهبت الريح بصوت وقوة كما لو كان الجبل نفسه قد تحطم وسقط فى البحر. فسوت سطح الماء حولنا أولا كما يسوى الثلج الحديدى الخطوط، ولكن، عادت الامواج من مفاجأتها، فانتفخت متذمرة، وارتفعت فى بضع دقائق الى علو حال بين أعيننا والشاطىء والجزيرة

كنا اذ ذاك على مسافة واحدة من الشاطىء وجزيرة ايشيا وفى أول القناة التى تفصل رأس ميزين وجزيرة پروشيدا اليونانية. فلم يبق أمامنا الا طريق واحد: أن نعبر القناة بلا تردد، واذا نجحنا فى عبورها، نعرج الى اليسار فى خليج بابا ونحتمي فى مياهه الهادئة

لم يتردد الصياد الشيخ. بل نظر حوله حين رفعتنا الأمواج، كما يفعل الرجل التائه الذى يصعد شجرة ليبحث عن طريقه، ثم اسرع الى الدفة وصاح:

— عليكم بالمجاذيف، يجب أن نسير الى الرأس أسرع من الريح، اذلو سبقتنا فنحن هالكون ! »

فأطعناه، كما يطيع الجسم الالهام. وملنا بمجاذيفنا، وقد ربطنا أعيننا على عينيه لنسترشد عن الطريق، طورا نصعد جوانب الأمواج الصاعدة الوعرة، وأخرى نهوى مع زبدها فى أعماق هواتها النازلة، محاولين تخفيف سقوطنا بمقاومته مجاذيفنا فى الماء.

قذفت بنا ثمانية أمواج أخرى فى أضيق أجزاء القناة، ولكن الريح سبقتنا كما قال الصياد، واشتدت قوتها عند مدخل القناة بين الرأس والجزيرة، حتى كانت تدفع البحر بدوى وحشى. فأخذت الامواج، التى لم تجد مخرجا تتصرف منه أمام دفع الزوبعة لها، تتراكم بعضها على بعض، وتهوى وتتناثر فى كل مكان، كبحر ترك لامواجه العنان، يحاول الهرب من غير أن يستطيع الخروج من القناة، فيصطدم بصوت مروع بصخور رأس ميزين الشديدة الانحدار، ويرتفع زبده زاحفا على الصخر، يحاول الصعود، ولكن يعود فيهوى الى الاعماق ثانية، ثم يعيد الكرة بقوة أعظم، فتتناثر المياه منه كالغبار علينا

٨

رأينا أن محاولتنا عبر القناة بهذا الزورق الخفيف ، الذى يكفى لأبسط الامواج أن تملوءه وتلتهمه ، ضرب من الجنون

فأرسل الصياد حينئذ نظره الى الرأس ، نظرة لن أنساها ، ثم صلّب على وجهه وصاح

— عبرُنا القناة مستحيل ، والعودة الى البحر أكثر استحالة ، فلم يبق لنا الا طريق واحد : النزول فى پروشيدا أو الهلاك ! »

شعرنا بصعوبة مثل هذا العمل فى مثل تلك الزوبعة رغما عن حداثة عهدنا بالاعمال البحرية

فان اتجاهنا الى الرأس لا يعرض الى الريح سوى مؤخر الزورق فتطردنا أمامها مع البحر ، والأمواج الصاعدة ترفعنا معها ، والفرصة نادرة لأن تغرقنا فى الهوات التى تحفرها الريح فى الماء . ولكن بخلاف ذلك اذا حاولنا النزول فى پروشيدا التى كنا نشاهد نيرانها تلمع على يميننا ، فيجب علينا أن نزلق بين الامواج معرضين جانب الزورق الى الريح

ولكن الضرورة لم تسمح لنا بالتردد : فأشار الصياد الينا برفع مجاذيفنا من الماء ، ثم حول اتجاه الزورق فى الفترة التى بين موجتين متتاليتين ، فاتجه بنا نحو پروشيدا ، سابحا كالريشة فى مهب

الريح ، تتقاذفنا الموجة الى الاخرى

٩

لم نتقدم كثيرا فى سيرنا . وكان الليل قد أرخى سدوله ، وخيم الظلام ، وزاده ظلاما تطاير الماء والزبد وتلبد السماء بالغيوم التى تسوقها الريح أمامها : أمر الشيخ الغلام بايقاد مشعله ، سواء للاضائة كى يرى عمله فى أعماق البحر ، أو ليرشد بحارة پروشيدا الى وجود زورق مشرف على الهلاك فى القناة ، ويطلب منهم ، لا معونتهم ، بل صلواتهم

كان المنظر هائلا فى التأثير والرهب ، منظر هذا الغلام متعلقا باحدى يديه الى الصارى الأمامى ورافعا بالاخرى مشعله الاحمر الذى تلعب به الريح ، فتلتوى النار حول رأسه ، وتحرق شعره وأصابعه

كانت هذه الشرارة السابحة ، طورا فى أعلى الامواج الشامخة وأخرى فى أعماق الهوات السحيقة ، على وشك الانطفاء دائما ولكن توقد دائما ، رمزا لحياة هؤلاء الرجال الاربعة ، المصارعين بين الحياة والموت ، فى أهوال تلك الليلة الرهيبة :

١٠

مرت بنا على تلك الحال ثلاث ساعات ، طول دقائقها كطول الافكار التى تقيسها . ثم ظهر القمر ، وزادت معه الريح كما هى العادة . ولو كنا رافعين أصغر شراع لهلكنا عشرين مرة ، فكانت الزوبعة ، رغما عن صغر جوانب الزورق ، تقتلعه من الأمواج وتطوح به كالورقة اليابسة نزعت من الشجرة

ازداد دخول الماء فى الزورق ، حتى لم نستطع اخراجه بالسرعة التى كان يدخل بها : وكنا نشعر فى بعض الاوقات بأن قاع الزورق نازل بنا الى الاعماق ، وصعب ثقل الماء تحرك الزورق ، اذ قد يعوقنا عن الصعود بين الأمواج ، ولو توقف بنا ثانية واحدة لقضى الأمر .

فأشار الينا الصياد ، عاجزا عن الكلام ، وعيناه مغرورقتان بالدموع ، أن نلقى فى البحر كل شىء يزدحم به الزورق . فقذفنا بجرات الماء وسلات الأسماك وشراعين كبيرين وهاب حديدى والحبال ، حتى معاطفنا الصوفيه المبللة بالماء ، كل شىء

نظر البحار المسكين ، كل ثروته تطفو على سطح الماء برهة . ولكن الزورق ارتفع بنا . ومرق كالسهم على رؤوس الامواج ، كما يسرع جواد رفع عنه حمله

دخلنا مياها أسهل ، تحميها الرأس الغربية لجزيرة پروشيدا . ثم ضعفت الريح ، واعتدلت نار المشعل ، وانشقت السحب وانبرى القمر يتلألأ فى زرقة السماء ، وأخذت الامواج فى الهدوء والبحر فى السكون رويدا . ثم ظهر ساحل پروشيدا أسودا على الافق المظلم . ثم وصلنا الى مياه الجزيرة الهادئه الخفيفة .

١١

كان البحر صعبا عند رأس الجزيرة كى نبحث عن المرسى ، فاضطررنا أن ننزل الى الجزيرة بين الصخور التى فى جانبها . ثم قال لنا الصياد بعد أن تعرّف الشاطىء على ضوء المشعل :

— لاتخافوا ، فقد نجتنا العذراء . وها قد وصلنا الى البر ، وسنمضى ليلتنا فى منزلى »

فظننا أنه فقد صوابه ، لاننا لم نعرف له منزلا سوي كوخ المارچلينا ، ويجب علينا للوصول اليه أن نعبر القناة ونعرج حول الرأس ونواجه البحر الهائج الذى قد نجونا منه . ولكنه إبتسم لاستغرابنا قوله ، وقال وقد فهم افكارنا من نظراتنا :

— اهدأوا أيها الفتية ، سنصل دون أن تبللنا الامواج »

ثم أفهمنا أنه من پروشيدا ولا يزال يملك على الشاطىء منزلا صغيرا

وحديقة فيها ورثها عن ابيه . وان زوجه وحفيدته أخت الغلام بينو الذى كان معنا وطفلين آخرين يسكنون هـذا المنزل حيث يجففون التين ويجمعون العنب الذى يبيعه هو فى ناپلى. ثم اضاف:

— بعد بضع تجذيفات نشرب من ماء الينبوع الأسلس من نبيذ ايشيا »

شجعتنا هذه الكلمات ، وجذفنا مدة فرسخ آخر موازيين لشاطىء پروشيدا ، والغلام يرفع من آن لآخر مشعله الذى كان يعكس ضوءه المقبض على الصخور ، فظهر لنا جدار لا يعبر .

أخيرا عند منعطف رأس من الصخر على هيئة حصن متقدم فى البحر ، رأينا فى الشاطىء الصخرى فتحة صغيرة فأدرنا الدفة ، واتجه الزورق اليها رأسا . ثم قذفت بنا الأمواج بين صخرتين حيث كانت تتلاطم بشدة .

١٢

سمعنا صوت اصطدام مقدم الزورق بالصخر ، كصوت لوح خشبي يتحطم . ثم قفذنا فى الماء ، وربطنا الزورق بما تيسر من الحبال وتبعنا الشيخ والغلام اللذين تقدمانا .

صعدنا طريقا محفورا فى الصخر يشبه السلم ، بعض درجاته

عبارة عن ألواح بالية غرزت فى الصخر وغطيت بالقطران ، فبعد أن صعدنا ببطء مايقرب من أربعمائة أو خمسمائة درجة وجدنا اننا فى ردهة صغيرة مكشوفة يحيط بها سياج من حجارة رمادية اللون . وفى آخر الردهة قنطرتان يظهر انهما تنتهيان الى مخزن وفوق هتين القنطرتين الضخمتين قبوتان تحملان شرفة مسطحة يحيط بأطرافها قصاري من الزهور . وترى تحت القبوتين سقيفة بسيطة تلمع فيها كيزان من الذرة معلقة فى السقف ينعكس عليها ضوء القمر .

وفى السقيفة باب من الخشب والى اليمين المنزل الصغير وبجانبه شجرة تين كبيرة واشجار من الكرم زاحفة على طول السقيفة والجزء الملتصق بها من المنزل وتغطى كذلك نافذتين منخفضتين تطلان على الحديقة

وقفنا نستريح نحن والشيخ فى هذه الردهة من عناء الصعود وثقل المجاذيف التى نحملها على أكتافنا ، ولكن الغلام ألقى بمجذافه بين الحشائش وصعد السلم مسرعا وأخذ يطرق احدى النوافذ بمشعله الموقد مناديا جدته واخته :

—أماه! أختاه ! جايتانو! جرازيلا! استيقظوا ! افتحوا ! هذا الأب وأنا وأجانب معنا ! » فسمعنا صوتا مازال يغلب عليه النعاس

ولكنه رقيق جميل يصرخ صرخات اندهاش فى آخر المنزل . ثم فتح جزء من النافذة ، دفعه ذراع مجرد ناصع البياض ، خارج من كمه المتطاير فى الهواء . ورأينا على ضوء المشعل الذى رفعه الغلام الى النافذة وهو واقف على أطراف أصابعه فتاة ذات جمال يسلب العقول ظهرت بين مصراعى النافذة

فاجأ جرازيلا أثناء نومها صوت أخيها ، فلم تفكر ولم تجد وقتا لاصلاح ملبسها ، واندفعت عارية القدمين الى النافذة بهيئتها التى كانت نائمة بها فى فراشها

وكان نصف شعرها الطويل الأسود مرسول على أحد خديها والآخر ملفوف حول عنقها يدفعه الهواء الى الخلف فيضرب به النافذة ثم يعود فيضرب خدها كما يدفع الريح جناح الطائر .

وكانت الفتاة تفرك عينيها بظهرى يديها رافعة مرفقيها وفاردة كتفيها بالحركة الأولى لطفل استيقظ من النوم ويريد طرد النعاس من جفونه . وكان قميصها المقفل عند العنق لا يبين سوى قواما رشيقا نحيفا أخذت تظهر عليه تحت القماش منحنيات الشباب

وكانت عيناها بيضا ويتين كبيرتين ذاتى لون متغير ، لون يجمع بين السواد القاتم وزرقة البحر ، لون يخفف الاضاءة بنداوة النظر ، ويخلط طيبة القلب وإرادة الهوى بنسب متساويه فى عين

المرأة : لون سماوى تأخذه نساء آسيا وايطاليا من نار نهارهن الملتهب وزرقة سمأنهن الصافية : من بحرهن وليلهن

ووجنتاها مستديرتين بديعتى النقش ، يعلو لونها شيء من الصفرة وسمرة الطقس ، لا بياض الجنوب الناصع. وكانت شفتاها المفتوحتان قليلا أسمك من شفاه نسائنا، ولها تجعدات تنم عن الطهارة وطيبة القلب . وأسنانها قصيرة ناصعة البياض ، تلمع على ضوء المشعل المرتعد كالصدف على شاطىء البحر تحت زرقة المساء تنعكس عليه أشعة الشمس، وكانت كلماتها التى يحمل النسيم نصفها ، تقع كالموسيقى على آذاننا، ومر منظر وجهها ذى الملامح المتحركة من الدهشة الى الخوف ، ومن الخوف الى السرور ، ومن الطيبة الى الضحك فى دقيقة واحدة : ثم رأتنا واقفين وراء جزع الشجرة ، فانسحبت من النافذة خجلة وتركت يدها المصراع فأخذت الريح تضرب به الجدار

ثم ذهبت فأيقظت جدتها وارتدت ملابسها وفتحت لنا الباب تحت القبوتين ، وقبلت جدها وأخاها وهى مضطربة

أتت الجدة العجوزة تحمل بيدها مصباحا من الفخار الاحمر ينير وجها اصفر وشعرا أكثر بياضا من الصوف الموضوع على المنضدة حول ركنها ، فقبلت يد زوجها وجبين الغلام

قص عليهم الشيخ حادثتنا بعبارة وجيزة ، ولم نسمع كل مادار بينهم من الحديث اذ وقفنا على بعد منهم لئلا نضايقهم فى انعطاف قلوبهم . ويجب علينا احترامهم اذ كانوا فقراء ونحن أجانب ، وكان انسحابنا الى جانب يبين لهم ذلك .

وكانت جرازيلا ترمقنا خلسة بنظرات دهشة من حين لآخر ، كما لو كانت فى حلم . ولما أتم الجد قصته ، جثت العجوز بجانب الموقد ، وصعدت الفتاة الى الشرفة فأحضرت غصنا أخضر وبعض زهور البرتقال ذات النجوم الكبيرة ، ثم وقفت على كرسى وعلقت الباقة بدبابيس طويلة أخرجتها من شعرها ، أمام تمثال صغير للعذراء موضوع بأعلى الباب وأمامه مصباح موقد . ففهمنا انها تشكر بذلك حاميتها المقدسة على نجاة جدها وأخيها ، واشتركنا معها فى اعترافها بالجميل

١٤

كان المنزل قليل الاثاث ، داخله يشبه خارجه وجدرانه بسيطة النقش . أيقظ الضوء الأورال ، فأخذت تزلق بين الشقوق فى الحائط وتحت أوراق السرخس التى ينام عليها الاطفال . وكانت أوكار السنونو متعلقة فى أخشاب السقف المغطى بقشور الاشجار

اليابسة ، وتطل منها رؤوس صغيرة سوداء تلمع عيونها القلقة . كانت جرازيلا وجدتها تنامان معا فى الغرفة الثانية على فراش واحد عليه غطاء من القماش وتوجد بأرض الحجرة سلات من الفاكهة

ثم التفت الينا الصياد خجلا وأشار بيده الى عراء منزله ، ثم قادنا الى الشرفة وهي ساحة الشرف فى بلاد المشرق وجنوب ايطاليا ، وشيد لنا بمجاذيفنا وبعض أخشاب الوقود مأوى صغيراء وساعداه فى ذلك الغلام وجرازيلا . ثم فرش بداخله بضع لفائف من أوراق السرخس ، وأحضر لنا قطعتين من الخبز وبعضا من الماء والتين وأشار علينا بالنوم

استغرقنا فى الحال فى سبات نوم عميق ، من جراء أهوال تلك الليلة ومتاعبها . ولما استيقظنا كانت طيور السنونو تصيح حول فراشنا طائرة بجانب الحائط تختطف فتات عشائنا. وكانت الشمس قد توسطت السماء وأخذت تسخن الاخشاب والأوراق اليابسة فوق رؤوسنا

ظللنا زمنا طويلا ممددين على فراشنا ، فى تلك الحاله التى بين اليقظة والنوم ، والتى تجعل رجل الضمير يشعر ويفكر قبل أن يجرأ رجل الشعور على القيام أو العمل . وكنا نتبادل بعض كلمات

ضعيفة يتخيلها سكوت طويل ثم لاتلبث أن تسقط بين الاحلام. فتتابعت فى مخيلاتنا ذكري صيدنا بالامس ، والزورق المتمايل تحت أقدامنا ، والبحر الهائج المتلاطم الامواج ، والصخور الصعبة ووجه جرازيلا بين مصراعى النافذة على ضوء المشعل ، فى صور متتابعة تتصادم وتختلط وتمتزج بعضها ببعض

أيقظنا من هـذا النعاس بكاء العجوز وعتابها لزوجها داخل المنزل . وكانت أصواتهم تأتى الينا من المدخنة التى تخترق الشرفة، فتصل الينا بعض كلماتهم

وكانت العجوز تبكي خسارة جرات الماء والهلب والحبال وبالأخص الشراعين الجديدين اللذين نسجتهما بيدها من كتانها الخاص. وكانت تقول انتا برابره وحوش، نحن الذين القينا بهذه الاشياء الى البحر لننقذ حياتنا . ثم تقول للشيخ الصامت المضطرب:

— ماالذى حملك على أخذ هذين الأجنبيين. هذين الفرنسيين؟ ألا تعلم أنهما كافرين ، وانهما يحملان الشر والنجاسة معهما؟ هاقد عاقبك القديسون ، وسلبونا ثروتنا فاشكرهم لتركهم لنا أرواحنا ! »

لم يحر الصياد جوابا ، ولكن جرازيلا قامت ضد هذا الظلم وهذا العتاب ، وأخذت تدافع عن الشيخ بلهجة البنت ذات الدلال

فأجابت جدتها قائلة :

— ماذا يدريك أن هذين الغريبين كافران ؟ هل للكفرة رحمة بالفقراء ؟ وهل يصلب الكفرة مثلنا أمام تمثال القديسين ؟ حسنا ! فأنا رأيت بالأمس حين ركعت شكراً لله وحين علقت الباقة أمام تمثال العذراء ، رأيتهما يطأطئان رأسيهما كما لو كانا يصليان ويصلبان على صدريهما . ولقد رأيت كذلك دمعة تلمع فى عين أصغرهما ، ثم سقطت على يده ! » فأجابت العجوز بجفاء :

— هى نقطة من ماء البحر سقطت من شعره ! » فصاحت جرازيلا بحمق :

— ولكن أنا متأكدة بأنها دمعة : فان الريح التى كانت تهب قد جففت شعره طول الطريق من الشاطىء الى أعلى السفح ، ولكن الريح لاتجفف القلوب . نعم أكرر ذلك ، كانت عيناه مغرورقتان بالدموع ! »

ففهمنا أن لنا فى المنزل حامية قوية السلطان ، لأن الجدة لم تجب ولم تفه بعد ذلك ببنت شفه !

١٥

أسرعنا بالنزول لنشكر العائلة الفقيرة على ضيافتنا ، فوجدنا

الصياد والعجوز وجرازيلا وبيبو حتى الطفلين يستعدون للنزول الى الشاطىء لزيارة الزورق الذى تركناه بالأمس ، كى يتحققوا من أنه مشدود الوثاق ، لأن الزوبعة كانت لاتزال ثائرة .فتبعناهم حانبي الرأس خجلين ، كضيوف يتقدمون كارثة ويجهلون شعور العائلة نحوهم

تقدمنا الصياد ثم زوجه فجرازيلا ماسكة يد أحد أخويها الصغيرين وحاملة الآخر على ذراعها ، ونحن سائران وراءهم فى سكون

فلما بلغوا منعطفا فى الطريق المدرجة ، حيث ترى الصخور التى كان يحجبها حتى الآن مرتفع من الصخر ، سمعنا صرخة يأس وجزع صعدت من الصياد وزوجه فى آن واحد،ورأيناهما يرفعان ذراعيهما العاريين الى السماء . ثم توالت صيحات اليأس ، وأخذا يضربان وجههما وينزعان شعريهما الأبيض فتتلاعب به الريح وتقذف به نحو الصخور

ثم اشتركت معهما جرازيلا فى البكاء،وكذلك الطفلين،وأسرعوا جميعا الى الشاطىء حتى قاربوا زيد الأمواج الهائله التى كانت تقذف به الى الساحل ، وسقطوا على الأرض ، بعضهم جاثيا

والباقى الى الخلف، والعجوز واضعة رأسها بين يديها ووجهها فى الرمال المبللة

كنا نشاهد منظر اليأس هذا من أعلى الدرج ، لانجسر التقدم أو التأخر. فان الأمواج كانت قدحملت أثناء الليل الزورق المشدود الى أحد الصخور التي كنا نأمل أن تحميه ، وحطمته على رؤسها، وكان نصف الزورق لايزال مشدودا بالحبل الى الصخرة حيث تركناه بالأمس ، ويتخبط بصوت محزن كصوت رجال أشرفوا على الهلاك ، تنطفىء حياتهم فى أنات يأس عالية

أما باقى أجزاء الزورق فكانت مبعثرة على الساحل، كأعضاء جثث مزقتها الذئاب بعد المعركة . ولما وصلنا الى الشاطىء كان الصياد الشيخ يجرى من قطعة خشب الى أخرى، ويتناولها ويفحصها بعين جامدة، ثم يلقيها ويسرع الى أخرى

وجرازيلا تبكى جالسة على الارض وواضعة رأسها بين يديها . والاطفال عاريي الأفخاذ فى البحر يجرون وراء القطع الطافية وهم يصرخون محاولين جذبها الى الشاطىء

أما العجوز ، فلم تنقطع عن البكاء والعويل . ولم نتمكن من سماع شىء من كلامها سوى أنات محزنة وشكاوى مرة تمزق الاحشاء. فكانت تصرخ الى البحر مهددة له بيدها :

— آه : أيها الوحش الضارى : أيها البحر الاصم : انك لشر من الجحيم : يالك من بحر لاقلب له ولاشرف : لمَ لمَ تأخذنا كلنا، بعد أن أخذت مورد زرقنا ؟ خذنا : خذ : خذنى قطعا لأنك لم تأخذنى كلى : »

تقول هـذا، وهى تقذف الى البحر قطعا من ثوبها وشعرها وتضرب الموج بيدها والزبد برجليها . ثم يعود حقـدها الى أنين مؤلم ، فتجلس على الرمال ثانية وتضـع جبينها على يدها ، وتنظر بعين ملوءها الحزن الى بقايا الزورق الطافية ، تتلاطم بين الامواج والصخور وتصيح :

— يالك من زورق مسكين : أهذا مصيرك ؟ أما كان يجب علينا أن نموت معك ؟ نهلك معا كما عشنا معا ؟ أنت هنا ، قطعا ، أربا ، ترابا ، مستغيثا بعد مماتك على الصخرة التى ناديتنا منها طول الليل : وحيث كان واجب علينا انقاذك : ترى ماظنك فينا ؟ لقد خدمتنا باخلاص ومحبة ، ونحن ؟ نحن قد خـدعناك وتركناك : فقدناك : فقدت هنا ، على هـذا القرب من منزل سـيدك ، على مقربة من صوته ، رميت على الشاطىء كجثة كلب أمين تقذف به الامواج ثانية الى قدمى سيده الذى أغرقه : » مخاطبة الزورق كما لو كانت هذه البقايا أعضاء مخلوق عزيز قد هلك . ثم يختنق صوتها

بالعبرات . ولكن تعود فتذكر صفات الزورق والنقود التى كلفهم، وكل الذكرى التى ترتبط بهذه البقايا الطافية

وتقول

— ألهذا أصلحناه ونقشناه فى العام الماضى ؟ ألهذا صنعه ابنى قبل وفاته مخافة أن يترك أولاده الثلاثة بلا أم ولا أب ؟ كم كان اعتنائه به وشغفه ؛ صنعه كله بيده ! وكنت حين أخرج السلات من قاعه أرى علامات (البلطة) فى الخشب فأقبلها لذكراه !

آه ! سيقبلنا الآن سمك البحر ! قد حفر بنفسه فى ليالى الشتاء بسكينه تمثال القديس فرنسوا على لوحة ووضعه فى مقدمته ليحميه من الزوابع . أيها القديس الظالم ! كيف كان اعترافه بالجميل ؟ ماذا فعل بابنى وزوجه والزورق الذى تركه لنا بعده لاكتساب زرق هؤلاء الاطفال ؟ كيف حمي نفسه وأين تمثاله ؟ ألعوبة الامواج ! »

— أماه ! أماه ! هذا هو القديس ! »

هكذا صاح أحد الطفلين حين التقط بين صخرتين على الشاطىء قطعة من الخشب قد انسحبت عنها المياه . فاندفعت المرأة المسكينة ، ناسية غضبها وسبها ولعنها ، وخاضت فى الماء الى الطفل وأخذت من يده التمثال الذى حفره ابنها وقبلته وغسلته بدموعها .

ثم عادت فجلست على الرمل وأمسكت عن الكلام

١٦

ساعدنا بيبو والصياد فى جمع بقايا الزورق واحدا واحدا، وأخرجنا قاع الزورق من الماء ووضعنا كل هذه فوق بعضها بعض ، اذ قد تنتفع العائلة ببعض ألواح منها . ووضعنا فوقها حجارة كبيرة لحفظها من الامواج فى مدها فلا تبعثر هذا الزورق العزيز . ثم عدنا مكتئبين متأخرين عنهم، اذ كان فقدان الزورق وكذلك حالة البحر لا تسمح لنا بالرحيل . وبعد أن اخذنا قطعة من الخبز وبعضا من اللبن أتت به جرازيلا لنا بجوار صنبور الماء تحت شجرة التين ، خافضى الرأس ، دون أن نفوه بكلمة ، تركنا المنزل فى حزنه وذهبنا نتمشى بين الكروم ، تحت أشجار الزيتون فى أعلى السفح

١٧

خطرت فى بالنا، ولو اننا لم نتكلم، فكرة واحده ، فسرنا بطبيعتنا فى الطريق المؤدية الى الرأس الشرقية للجزيرة ، والتى تنتهى بنا الى أقرب مدينة فى پروشيدا . ودلنا على الطريق بعض رعاة المعز وبعض فتيات مرتديات ملابسا يونانية ، قابلناهن على الطريق تحملن على رؤوسهن جرات ملأى بالزيت . فوصلنا المدينة بعد ساعة من المسير . ثم قال لى صديق :

— هذى حادثة محزنة »

فاجبته :

— نعم ، ويجب أن نبدلها سرورا لهؤلاء القوم الطيبين » فقال وهو يضرب على حزامه فسمعت صوت نقود ذهبية : لقد فكرت فى الأمر »

— وأنا أيضاً ولكن ليس معى إلا خمس أوست قطع ذهبية فى جيبى ، ولكن بما أننى أشتركت فى الضرر بالنصف فيجب أن أكون أيضاً فى الاصلاح بالنصف »

فقال :

— أنا أغنى الاثنين ، ولى حساب فى مصرف بناپلى ، سأدفع كل شىء الآن ونتحاسب فى فرنسا »

كنا سائرين أثناء هذه الكلمات فى طرق پروشيداً المنحدرة فوصلنا بعد برهة وجيزة إلى (البحريه) (ويطلق هذا الاسم على الشاطىء المجاور للميناء فى البلاد الساحلية الايطاليا والأرخبيل)

رأينا عند الشاطىء مراكب كثيرة من إيشيا وپروشيداً وناپلى اضطرتها الزوبعة للالتجاء لمياهه الهادئة . وكان البحارة والصيادون نائمين فى الشمس أو يتحادثون بجماعات وهم جلوس على الرصيف . وقد ظنوا أننا بحارة من تسكانا أو جنوه على ظهر المراكب

التى أنزلت حمولاتها من نبيذ إيشيا و نت الزيتون، عند رؤية ملابسنا وقلنسواتنا الصوفية الحمراء التى تغطى شعورنا

سرنا فى المراسي باحثين باعيننا عن زورق متين حسن الصنع تسهل قيادته لرجلين ويقرب شكله وحجمه من الزورق المفقود . لم نتعب فى ايجاده . وكان ملكا لصياد غنى من الجزيرة كان يملك زوارق أخرى كثيرة . ويظهر على الزورق الذى أعجبنا أنه لم يستعمل إلا شهور قلائل، وعلى ذلك ذهبنا الى منزل صاحبه الذى أرشدنا اليه صبية المرسى

وكان رجلا ضحوكا حسيسا طيب القلب، فتأثر لسماع قصتنا عن فاجعة الليلة وحزن مواطنه من بروشيداً ، غير أنه لم يفقد لذلك درهما واحداً من ثمن الزورق ولو أنه لم يبالغ فى قيمته .

اتفقنا على شرائه بمبلغ اثنى وثلاثين قطعة ذهبية دفعها له صاحبى فى الحال . وفى مقابل ذلك نمتلك الزورق ومعداته الجديدة من أشرعة وجرات وحبال وهاب حديدى. ثم أتممنا المعدات بشراء معطفين من الصوف الأشقر من حانوت بالميناء ، أحدهما للصياد والآخر لحفيده، وأصنفنا كذلك شباكا من أنواع مختلفة ، وسلات للسمك وبعض الأوانى البسيطة الضرورية للمنزل لاستعمال النساء

ثم اننا اتفقنا مع صاحب الزورق أن ندفع له فى اليوم التالى

ثلاثة قطع ذهبية أخرى، إذا وصل الزروق في اليوم نفسه الى البقعة من الشاطىء التي وصفناها له فقل ، إذ رأى أن العاصفة أخذت في الهدوء وأن الارض المرتفعة من الجزيرة تحمي البحر في تلك البقعة . وعلى ذلك تركناه وعدنا إلى منزل أندريا براً

١٩

قطعنا الطريق على مهل . فكنا نجلس تحت الاشجار وظل الكروم. ونحادث الفتيات البروشيديات ونساومهن على سلات التين والعنب التي تحملنها، وبذلك نقضي الساعات . ولما رأينا من أعلى المرتفع زورقنا يزلق خلسة بجانب الشاطىء أوسعنا خطانا كي نصل مع المجذفين في وقت واحد

لم نسمع صوتا ولا وقع أقدم داخل المنزل الصغير ولا في الكروم المحيطة به . وكانت علامة الحياة الوحيدة في هذا المنزل، حمامتين جميلتين، ذاتي أجنحه بيضاء بها خطوط سوداء ، كانتا تلتقطان حبوب الذرة على سياج الشرفة . فصمدنا بكل سكون، فاذا بالعائلة نائمة كلها . وتبدو على وجوههم جميعا علامات الحزن أثناء نومهم، ماعدا الطفلين النائمين بجانب بعضهما على ذراع جرازيلا

رأينا العجوز واضعة رأسها على ركبتيها، وكأن تنفسها الضعيف

لا يزال ينتحب ، والشيخ نائما على ظهره فى الشمس وطيور السنونو تحف شعره الرمادى ويغطى الذباب جبينه المبلل بالعرق وقد امتدت بين عينيه وفمه حفرتان عميقتان تشهدان بانتهاك قوته وأنه نام والدموع تسيل من عينيه

شق علينا هذا المنظر وانفطر له قلبانا ، ولكن شجعنا تذكرنا ماسنسببه لهم من السرور ، فأيقظناهم وألقينا عند قدمى جرازيلا وأخويها الصغيرين الخبز والجبن واللحوم المملحة والعنب والتين والبرتقال التى اشتريناها على طول الطريق

لم تجسر الفتاة والأطفال على القيام بين مطر الرخاء هذا ، المتساقط حولهم من السماء . ثم شكرنا الأب بلسان عائلته ولكن الجدة كانت تنظر إلى كل هذا بعين تائهة . وكانت علامات وجهها أكثر تعبيرا للغضب منها لعدم الاكتراث . فقال صديقى للصياد :

— هيا يا أندريا ! يجب على الرجل ألا يبكى مرتين على ما يمكنه شراؤه بالعمل والشجاعة . هنالك ألواح في الغابة وأشرعة فى الكتان النابت ، وليس ثمة سوى حياة الانسان التى تبلى ولا تتجدد . ويوم البكاء يستنفد قوة أكثر من سنة العمل . هيا انزل معنا أنت وزوجك وأولادك ، فنحن بحارتك وسنساعدك فى

حمل بقايا الزورق الى الردهة فتصنع منها مناضد وسرائر وأثاثا لعائلتك فسيسرك يوم من الأيام أن تنام هادئا فى شيخوختك بين هذه الألواح التى طالما تمايلت بها فوق الأمواج

فتمتمت العجوز خفية:

— ليتها تكفى لصنع توابيتنا !

٢٠

قاموا عند ذلك وتبعونا . فنزلنا الدرج ببطء ، ولكنا لاحظنا أن هيئة البحر وصوت أمواجه أحزنتهم

لن أحاول وصف دهشتهم وسرورهم حين رأوا من أعلى الجبل الزورق الجديد يلمع فى الشمس بجانب بقايا القديم على الرمل وحين قال لهم صديقى :

هو لكم!

سقطوا الى الأرض جميعهم كان الفرح قد صعقهم. جثى كل منهم على الدرجة التى كان عليها شكراً لله قبل أن يجدوا كلاما يشكروننا به . ولكن كفتنا سعادتهم شكراً

ثم قاموا عند نداء صديقى لهم وأسرعوا وراءه نحو الزورق ، وطافوا حوله باحترام عن بعد أولا ، كما لو خشوا أن يكونوهما

فيختفى عن أبصارهم .ثم أخذوا يقتربون منه، ثم يلمسونه ويضعون الأيدى التى لمسته على أفواههم وجبينهم ، ثم صاحوا صيحات فرح واعجاب وأمسكوا بأيدى بعضهم بعضا ، من العجوز الى الأطفال وشرعوا يرقصون حوله

٢١

كان بيبو أول من صعد فى الزورق .فوقف فى مقدمته وأخذ يخرج ماوضعنا فى داخله من العدد الواحد بعد الآخر ويرفع المجازيف فوق رأسه وينشر الأشرعة ، ويلمس بأصابعه صوف المعطفين ، مظهرا لجده وجدته وأخته كل تلك النفائس بصيحات الفرح والسرور ، وكان الأب والعجوز وجرازيلا يبكون وينظرون الى المركب تارة والينا أخرى . وكانت البحارة التى أتت بالزورق مختبئة وراء الصخور تبكى أيضاً

اقتربت جرازيلا من جدتها خافضة رأسها وسمعتها تسر اليها مشيرة نحونا بأصبعها

— كنت تقولين أنهما كافرين حين كنت أقول لك أنا أنهما قد يكونان من الملائكة ! «فمن منا الصادق ؟ »

فجثت العجوز عند ذلك أمامنا وطلبت منا العفو عن شكها

فينا . ولقد أحبتنا من تلك الساعة مثل حفيدتها أو بيبو

٢٢

صرفنا البحارة بعد أن أعطيناهم الثلاثة قطع الذهبية المتفق عليها . ثم حمل كل منا جزءاً من العدد التي يزدحم بها الزورق وعدنا الى المنزل ، لا ببقايا ثروتهم ، بل بكل تلك النفائس

وفى المساء بعد الطعام أخذ بيبو من فراش جدته تمثال القديس فرنسوا الذى نقشه أبوه وأصلحه بسكينه ثم صبغه جديداً وعزم على وضعه فى مقدمة الزورق فى الغد كى يحتوى الزورق الجديد على شئ من القديم

كذلك كان يفعل الأقدمون .فاذا شيدوا معبداً مكان آخر كانوا يدخلون فى البنيان الجديد حجارة أوأعمدة من المعبدالقديم، كى يحتوى الجديد على شئ مقدس قديم، وكي يكون للتذكار البالى الخشن .حظ من العبادة والمجد بين بدائع البيت المقدس الجديد .

مازال الانسان إنساناً فى كل مكان ، ولطبيعته الحساسة طباع وعادات واحدة ، سواء كان الأمر أمر البانثيون أو سان پيير روما أو زورق صياد حقير بين الصخور فى جزيرة پروشيدا

٢٣

كانت تلك الليلة هى أسعد الليالى التى قدرها الله لهذا المنزل من حين أن شيد من الصخر الى أن تلاشى ترابا لا قيام له. ثم نمنا على صوت حفيف الهواء بين أشجار الزيتون ، وعلى صوت تلاطم الأمواج على الشاطئ وأشعة القمر كانت تضىء الشرفة

كانت السماء عند استيقاظنا صافية كالبللور والبحر داكن الزرقة ، به خطوط الزبد بيضاء ناصعة، كما لو كان العرق يتصبب من الماء من جراء سرعته أو مله . ولكن الريح ما زالت تزأر هائجة، وارتفع الضباب الأبيض الذى يتراكم من الأمواج على سن رأس ميزين، مغطيا كل ساحل كوم بمد وجزر من الضباب المضىء، لا يفتر يصعد ويهبط . ولم نر شراعا واحدا على خليج جايت أو خليج بايا

وكانت طيور السنونو تضرب بأجنحتها الزبد ، وهى الطائر الوحيد الذى يجد سروره فى الزوبعة ، فيصيح فرحا حين غرق المراكب، كسكان خليج الموتى الذين ينتظرون فريستهم من السفن المشرفة على الهلاك

كنا نشعر بسرور قلبى لسجننا مدة الزوبعة فى منزل البحار

وكرومه ، اذ كان يسمح هذا السجن لنا بالتمتع بحالتنا، والتلذذ بسعادة تلك العائلة الفقيرة التى كنا نرتبط بها كالأطفال

حجزتنا الزوبعة والبحر المضطرب مدة تسعة أيام كاملة ، ووددنا وأنا خاصة أن لا تنتهى الزوبعة أبداً ، وأن ترغمنا ضرورة القدر على البقاء سنيناً، حيث كنا نشعر بأننا أسرى سعداء . ومع ذلك فكانت تمر علينا الأيام متماثلة دون أن نشعر بها

لا شئ يثبت ان السعادة تتم بأشياء قليلة أكثر من أيام شباب القلب وتمتعه بكل شىء . كذلك تحفظ أبسط الأغذية حياة الجسم وتجددها حين تقارنها الشهية وحين تكون الأعضاء جديدة سليمة

٢٤

كنا نستيقظ على صياح طيور السنونو التى تمس سقف فراشنا فى الشرفة حيث كنا ننام . فنسمع جرازيلا تغنى بصوت خافت بين الكروم مخافة أن تقلق نوم (الأجانب). وننزل عند ذلك الى الشاطئ مسرعين ونغوص فى البحر ونسبح بضع دقائق فى جزء من البحر يحيط به الرمل ، كافى العمق ، صافى الماء لا يصل اليه زبد البحر الهائج . ثم نصعد الدرج على مهل ونحن نجفف

شعرنا وأكتافنا المبللة فى الشمس . ونتناول تحت الكرم طعام الإفطار من خبز وجبن، تأتى به الفتاة وتأكل منه معنا، ونشرب من جرة فخارية تملؤها من عين الماء الصافية الباردة ، فتميلها بيدها بينما نشرب منها . ثم نساعد العائلة فى الأعمال المنزلية وفى الحديقة . فنرفع الأجزاء المهدمة من الجدران المحيطة بالكروم والحاملة للشرفة ، ونقتلع الأحجار التى زلقت فى الشتاء من أعلى هذه الجدران على الكروم الصغيرة والتى يزدحم بها الجزء الصالح للزراعة من الحديقة ، ونخرج من المخزن البطيخ الاصفر الكبير ثم نقطع أوراقه الطويلة التى تعوق السير ، ونخط بين الكروم مجارى فى الارض لتتجمع فيها مياه الامطار فتروى الكروم مدة أطول ، ثم نحفر للغرض نفسه آبارا صغيرة كالاقاع أسفل أشجار التين والليمون ، هكذا كانت أعمالنا فى الصباح حتى تنتصف الشمس فى الافق وترسل أشعتها عمودية على السقف والحديقة والردهة فتضطرنا للالتجاء الى ظل الكروم . وكان انعكاس أوراق الكروم وشفافها يكسو الظل لونا بديعا مذهبا

الفصل الثاني

١

تعود جرازيلا عند ذلك الى المنزل فتجلس بجانب جدتها وتغزل معها أو تذهب فتعد لنا الغذاء . أما الصياد وبيبو فكانا يقضيان أياما كاملة على الشاطىء ينظمان الزورق الجديد ويدخلان فيه كل التحسينات التى تبدولهما،ويجربان الشباك الجديده فى حمى الصخور . وكانا يأتيان كل يوم ببعض أسماك الحنكليس يفوق لمعان صدفها بريق الرصاص المنصهر . فتعدها لنا العجوز فى زيت الزيتون ، وكانت تحفظه العائلة كما هى عادة البلاد فى بئر صغيرة محفورة فى الصخر بجوار المنزل ويغطيها حجر كبير به حلقة من الحديد . ويكمل طعام الغداء البسيط وهو أهم أكلة فى النهار وألذها،بعض الخيار المقلى قطعا رفيعة وبعض المحار الطازج يشبه (أم الخلول) ويسمى تمر البحر أو فاكهة البحر . وكانت فاكهتنا عناقيد العنب الطويلة الصفراء ذات الرائحة الجميلة المحفوظة على كرومها بين الاوراق، تقطفها جرازيلا فى الصباح وتأتى بها الينا على صحاف من الخيزران المنسوج . ونستعمل عوضا عن المشروبات الروحية أو القهوة أغصانا من الشمر الأخضر توضع فى الفلفل

فتعطر شفاهنا وتشرح قلوبنا رائحتها الينسونية . كذلك يفعل بحارة ناپلى وفلاحوها

وبعد الغـذاء أذهب أنا وصديق باحثين عن مكان رطب ظليل فى أعلى السفح، يطل البحر وعلى شاطىء بابا، فنجلس فيه، وننظر ونحـلم ونقرأ طول الساعات المحرقة من النهار الى الساعة الرابعة أو الخامسة بعد الظهر

٢

لم ننقذ من الامواج إلا ثلاثة كتب ، نجت من الغرق لانها لم تـكن داخل الحقيبة التى ألقيناها فى البحر

وكان أحدها كتابا صغيرا ايطاليا تأليف «أوجو فوسكولو» وعنوانه «خطابات چاكوپو أورتيس» وهو شبيه بكتاب «ڤرتر»، نصفه سياسى ونصفه روائى

فيه يختلط حب الحرية والوطن فى قلب شاب ايطالى بحبه لفتاة جميلة من البندقية . ويغذى هـذا الهيام المزدوج فى قلب أورتيس نار مزدوجـة : نار الغرام وناد الوطنية، فأوقـدت حمى تفوق وطأتها قوى رجل مريض حسيس ، فانتهت بالانتحار

والـكتاب نقل حرفى لڤرتر جوت ، ولـكنه نقل مضىء حى

وكان يوجد بين أيدى كل الشبان الذين يعملون فى قلوبهم هذا الامل المزدوج ، أمل الجديرين بأن يأملوا شيئا عظيما : الحب والحرية

٣

كانت سياسية ناپليون ومورا تضطهد مؤلف هذا الكتاب، الذى كان منجأه الوحيد، هو قلب الوطنيين الطليان وأحرار أوروبا. فكانت قلوب الشبان أمثالنا، هى البيت المقدس لذلك الكتاب، حيث كنا نخبئه لنتغنى بحكمه

وكان أحد المجلدين الآخرين كتاب پول دوفيرچينى لبرناردان دى سان پيير وهو مختصر الحب الساذج . كتاب كأنه صفحة من طفولة العالم، نزعت من تاريخ قلب الانسان ، وحفظت نقية طاهرة ، مازالت مبللة بدموع معدية لكل عين فى السادسة عشر سنة !

وكان الكتاب الاخير مجلدا لتاسيت، صفحات ملوثة بالفسيق والعار والدماء ، ولكن تأخذ فيها الفضيلة ذات العزم قلم النفس وجلد التاريخ الهادىء ، لتملأ قلوب من يفهمها حقدا للظلم والارهاق، قوة للتضحيات العظيمة ، وظمأ للميتات الشريفة !

كانت هذه الكتب الثلاثة توافق بالصدفة شعورنا فى ذلك الحين الذى كانت تهتز له قلوبنا الشابة بطبيعتها . وهو الحب ، والتحمس لتحرير ايطاليا وفرنسا ، والشغف بالحركة السياسية وبحركة الأعمال العظيمة التى كان يصورها لنا « تاسيت » ، والتى لأجلها كان ينمس نفوسنا فى دماء قلمه، فى نار الفضيلة القديمة، ونحن لانزال صغارا

كنا نقرأ بصوت عال، ونعجب تارة ونبكى أخرى، ثم نفكر، فنقطع هذه المطالعات بسكوت طويل، وببعض صيحات نتبادلها، هى عبارة عن تعليقاتنا السريعة عن شعورنا ، تحملها الريح مع أحلامنا

٤

كنا نتصور اننا حقيقة فى بعض تلك المواقف الفرضية التى يقصها علينا الشاعر أو المؤرخ، ونبنى آمالا خيالية: عاشقا أو وطنيا ، وحياة علنية أو سرية ، وسعادة أو فضيلة . ونتلذذ بتدبير هذه الظروف العظيمة ، وهذه الصدف الكبيرة فى أوقات الثورة ، التى يظهر فيها أخمل الناس . يظهرون بقريحتهم وينادَوْن بأسمائهم لمكافحة الظلم والارهاق ، وانقاذ الشعب ، ثم يحكم عليهم بعد ذلك بالاعدام ، ضحية لتقلب الشعوب وكفرها بالنعم ، أمام الدهر الذى

يتبرأ منهم ، والخلف الذى ينتقم لهم

لم نجد أدوارا مهما كانت عظمتها إلا كانت نفوسنا فى مستوى ظروفها . فكنا نستعد لكل شىء ، وننتقم من الحظ مقدما باحتقارنا له ، اذا لم يحقق كل تلك الآمال العظيمة التى ندبرها نظريا ، ونحفظ فى قلوبنا تلك التسلية للنفوس العالية لو بقيت حياتنا غير نافعة ، عادية ، خاملة : الحظ الذى خاننا لا نحن اللذان خاناه !

٥

كنا نقطع مسافات طويلة فى طول الجزيرة وعرضها ، حين تأخذ الشمس فى الانحدار ، فنجتازها فى كل اتجاهاتها أو نذهب الى المدينة ونشترى الخبز والخضر التى تنقص حديقة « أندريا ». وفى بعض الاحيان نأتى ببعض الطباق ، وهو أفيون البحار الذى يحرضه فى البحر ويسليه فى البر ، ونعود الى المنزل عند تخييم الظلام وجيوبنا وأيدينا ملأى بهذه النفائس

وفى المساء كانت تجتمع العائلة على السطح ، ويسمى فى ناپلى (الأستريكو) ، لانتظار ساعات النوم

وما أجمل هذا المنظر على السطح فى ليالى هذا الطقس المقمرة !

تشبه المنازل القروية المنخفضة المربعة، قواعد قديمة تحمل جماعات من التماثيل المتحركة . يصعد الى السطح جميع سكان المنزل ويتحركون ويجلسون جلسات مختلفة ، ويرسل القمر أو المصباح ضوءه راسما هذه الأشكال على قبه الافق الزرقاء المرصعة بالنجوم. فترى الأم العجوز تغزل، والأب يدخن غليونه الفخارى، والشبان يتكئون على الحافة للجدار ويغنون بنغمات ضعيفة الادوار البحرية أو القروية التى لنغماتها الطويلة أو الرنانة، صوت أنين الخشب تعذبه الأمواج ، أو رنين صوت الزيزان العالى فى الشمس وترى الفتيات بملابسهن القصيرة ، وأرجلهن العارية، وصدارهن الخضراء المطرزة بالذهب، والحرير وشعورهن الطويلة السوداء المرسلة على اكتافهن، ملفوفة فى منديل مربوط عند العنق بعقد كبيرة كى يحفظها من الغبار

وترقصن وحدهن أو مع اخواتهن ، فتمسك احداهن فيثارة وترفع الثانية فوق رأسها رقا به أجراس نحاسية . وهتين الآلتين إحداهما تئن خفيفة والثانية صماء موحشة، تتفقان فى إخراج النغمتين المتبادلتين فى قلب الانسان : الحزن والفرح . وتسمع فى ليالى الصيف على جميع منازل الجزائر والقرى المحيطة بنابلى تقريباً، حتى على الزوارق

وهذا التوافق بين النغمات الذى يتبع الاذن من مكان لآخر، من البحر إلى الجبل ، يشبه طنين حشرة اخرى توجدها الحرارة وتجعلها تطن تحت هذه السماء الجميلة !

تلك الحشرة المسكينة هى الانسان ، فيغنى شبابه وحبه أمام الله بضعة أيام، ثم يسكت الى الابد !

لم أسمع مرة هذه النغمات المنتشرة فى الهواء، صاعدة من سطوح المنازل ، دون أن أقف مكانى ، ودون أن ينقبض قلبى ، يكاد يمزقه سرور أو حزن داخلى أقوى منى !

٦

كذلك كانت الهيئات والموسيقى والاصوات على شرفه سطح منزل أندريا . فكانت تعزف جرازيلا على قيثارتها، ويضرب بپينو على رقه الصغير، الذى طالما نام على ضرباته فى طفولته، وكانت الأدوار محزنة ، والنغمات ضعيفة طويلة ، تدخل لأعماق النفس ، فتهتز لها الأعصاب النائمة فى القلب، بخلاف الهيئات والجلسات ، فكانت تبدو عليها علامات السرور والفرح

كذلك حال الموسيقى فى كل مكان، فليست مجرد أصوات تتلاعب بالآذان ، بل هى أنة الهوى الشجية ، تخرج من النفس على لسان

الصوت . فكل هذه النغمات تنهدات ، وتجرى الدموع مع تلك الأصوات، إذ لا يطرق على قلب الانسان بقوة، دون أن يخرج دموعا : كم الطبيعة ملأى بالأحزان ! وكم يرفع مايحركها بالمرارة الى شفاهنا ، وبالغيوم الى أعيننا !

٧

وحين نتوسل الى الفتاة ، وتقف ببساطة لترقص التارانتلا على صوت الرق الذى يقرعه أخوها ، وحين تدفعها حركة هذا الرقص الأهلى الدائرية، فتدور على نفسها، رافعة يديها بحركة ظريفة، ومقلدة صوت (الساجات) بأصابعها ، حين تشبه خطوات قدميها العاريتين السريعة وقع قطرات المطر على الشرفة ! نعم ، يوجد فى تلك اللخطة فى الهواء وفى الهيئات ، حتى فى حمى هذا الهذيان المتحرك ، يوجد شىء من الجدية والحزن ، كما لو كان كل السرور ضرب من الجنون المؤقت ، وكما لو كان على الشباب أو الجمال أن يتخدر حتى الانفعال ، وأن تسكره الحركة، كى يقبض على برق من السعادة !

٨

وكنا نتحادث فى بعض الأحيان مع مضيفينا ونسألهم عن تاريخهم وعاداتهم وتذكاراتهم العائلية . فكل عائلة هى قصة أو قصيدة لمن يعرف كيف يتصفحها .

وقد كان لهذه العائلة مجدا وغنا وعظمة كذلك فى قديم الزمن. كان جد أندريا تاجراً يونانياً من جزيرة (ايجين)، ولما اضطهده باشا أثينا لأجل دينه، أقلع فى ليلة مع زوجه وبناته وأولاده وثروته فى مركب كان يملكها للتجارة، والتجأ إلى پروشيدا حيث كان السكان يونانيين مثله وكان يراسلهم قبل هربه. فاشترى فيها أملاكا واسعة، لم يبق من آثارها سوى المنزل الصغير الذى كنا نسكنه. واسم العائلة محفور على بعض مدافن المدينة.

توفيت البنات، وكن راهبات فى دير الجزيرة، ثم خسر الأولاد ثروتهم فى الزوابع التى أغرقت كل مراكبهم. وسقطت العائلة إلى الحضيض، فغيرت اسمها اليونانى الجميل إلى اسم صياد خامل فى پروشيدا. وكان أندريا يقول لنا:

— إذا تهدم المنزل فانه يرمى حتى آخر حجارته. ولم يبق من كل ما أمتلكه جدى تحت السماء سوى مجذافي والزورق الذى رددتماه لى، وهذا المنزل الصغير الذى يكسب زرق أصحابه، ومعونة الله! »

٩

كانت تسألنا جرازيلا وجدتها أن نقص عليهم بدورنا من نحن وأين بلادنا، وماذا تصنع آباؤنا، واذا كان لنا أب وأم وإخوة

وأخوات ومنزل وأشجار تين وكروم ، ولماذا تركنا كل ذلك ونحن في هذا السن من الشباب ، لنأتي هنا ونجذف ونقرأ ونكتب ونحلم في الشمس ، وننام على الأرض ، هنا في خليج نابلي

فكنا لا نستطيع إفهامهم مهما حاولنا أننا إنما أتينا لرؤية السماء والبحر ، ونبخر روحنا في الشمس ، ولنشعر بغليان الشباب في قلوبنا ، ولنجمع التأثيرات والشعور والأفكار التي قد نكتبها فيما بعد أشعاراً ، كالتي يرونها في كتبنا أو التي يسردها مغني نابلي على البحارة أيام الأحد على الرصيف في المساء أو عند ساحل المارچلينا .

وكانت تجيبنا جرازيلا ضاحكة :

— إنكما تهزآن بنا ، أنتما شاعران ! ولكن ليست شعوركما شعثاء ولا عيونكما شاردة ، كالذين يسمون كذلك على رصيف المرسى أنتما شاعران ! مع أنكما لا تعرفان توقيع نغمة واحدة على القيثارة فبماذا تتبعان الاغاني التي تؤلفانها ؟

ثم تهز رأسها مقطبة جبينها ، وحانقة علينا لامتناعنا عن قول الحقيقة

١٠

كان يخطر في نفسها أحياناً شك قبيح ، يغطي نظرها بظل

الخوف والريبة، ولكنه لايدوم طويلا . فكنا نسمعها تسر إلى جدتها :

— لا ، هذا محال ، ليسا لاجئين فرا من بلادهما لعمل شنيع ، مازالا شابين طيبي القلب حتى يعرفا الشر »

وكان يسرنا إذ ذاك أن نقص عليها حكاية بعض الجرائم الوحشية المخيفة مدعيين أننا فاعلوها . ولكن التناقض بين جبيننا الهادئين وعيوننا انصافية ، وشفاهنا الضاحكة ، وقلوبنا المنشرحة ، وبين الجرائم المرهبة التى ندعى ارتكابها كان يجعلها تضحك بصوت عال هى وأخوها ويبدد كل شك قد يخالج نفسها

١١

ثم كانت تسألنا جرازيلا عما نقرأه نهارا فى كتبنا ، وكانت تظن أنها كتب دعائية ، لأنها لم ير كتبا الا فى الكنيسة بين أيدى المؤمنين المتعلمين الذين يتبعون كلمات القسيس المقدسة ، وتظن أيضاً أننا تقيان لأننا نقضى أياما طويلة نتمتم كلمات غريبة ، ولكنها تعجب من أننا لانذهب كقسيسين أو ناسكين الى دير من أديرة الجزيرة أو ناپلى . حاولنا افهامها خطأها بأننا نترجم لهم قطعا من فوسكولو أو مختارات جميلة من تاسيت إلى اللغة العامية ، وكنا نظن

أن التنهدات الوطنية للمنفي الأيطالي وفاجعات روما الأمبراطورية هذه ستؤثر على سامعينا السذجة تأثيرا كبيرا . اذ للشعب وطنية في الطباع وتضحية في الشعور وتأثر في النظرة ، وما يتذكره جيدا هو السقطات العظيمة والميتات الجميلة . ولكننا وجدنا أن هذه القراءة المؤثرة، وهذه المشاهد القوية التأثير علينا، لم يكن لها أدنى تأثير على هذه النفوس البسيطة.

فان شعور الحرية السياسية ، هذا الأمل العظيم لرجال الفراغ، لا ينزل الى هذه الدرجة بين الشعب

فما كان هؤلاء الصيادون الفقراء يفهمون لماذا ييأس أورتيس وينتحر ، وفي وسعه أن يتمتع بكل ملاذ الحياة الحقيقية : يتنزه بلا عمل ، ويرى الشمس ، ويحب معشوقته ، ويصلي لله ، على شواطئ (البرنتا) الكائبة الخضراء ويقولون:

— لماذا يعذب نفسه هكذا بهذه الافكار التي لا تصل الى القلب ؟ ماذا يهمه لو حكم النمسيون أو الفرنسيون في ميلان ؟ هو مجنون ليحزن نفسه بهذه الاشياء ! »

ثم يرفضون الاصغاء

١٢

أما تاسيت ، فما كانوا يصغون اليه بالمره

فالامبراطورية أو الجمهورية ، هؤلاء الرجال الذين يقتتلون ، بعضهم لاجل السيادة والبعض الآخر فراراً من العبودية ، وهذه الجرائم التى ترتكب فى سبيل العرش ، وهذه الفضائل التى تكتسب لأجل المجد ، وهؤلاء الشهداء الذين يموتون لاجل الخلف ، كل ذلك كان لا يؤثر عليهم

اذأن هذه العواصف تثور فى علو شاهق فوق رؤوسهم حتى تؤثر فى نفوسهم . فكانت لهم بمثابة الرعد ، يقصف على جبل بعيد عنهم ، يترك ولا يؤبه له لانه لا يقع الا على القمة ولا يؤثر فى شراع الصياد أو منزل القروى

لا يشتهر تاسيت الا بالسياسة والفلسفة ، فهو أفلاطون التاريخ . اذ لا يدرك العامة شعوره الراقى ، ويجب لفهمه أن تقضى الحياة وسط الاضطربات فى الميادين العمومية أو المؤمرات السرية فى القصور

جرد هذه المشاهد من الحرية والطمع والمجد ، ماذا تبقى ؟ هذه الثلاثة هى التى تمثل تلكم الروايات المحزنة . وهذه الشهوات الثلاثة مجهولة للشعب ، لانها شهوات الضمير ، والشعب لا يشعر الا بشهوات

القلب . فهمناذلك حين شاهدنا الجفاء والدهشة التى سببتها قراءة هذه القطع حولنا

حاولنا فى ليلة أن نقرأ لهم كتاب (پول وڤيرچينى) وكنت أترجمه وأنا أقرأ لأنى تعودت قرائته كثيرا حتى كدت أوعاه عن ظاهر قلب . ولتعودى لغتهم لطول مكثى فى ايطاليا كانت الاصطلاحات لاتكلفنى عناء وتسيل من شفتى كما لو كانت لغتى الحقيقية

ما كدت أبدأ، حتى تغيرت ملامحهم وأخذت هيئتهم تدل على تجمع الحواس . والاصغاء التام دليل على انفعال القلب . هاقد عثرنا أخيرا على النغمة التى تهتز للتوافق فى نفوس جميع الناس ، فى كل الأزمنة والحالات ، النغمة الحساسة . النغمة العامة التى تحتوى فى صوت واحد حقيقة الفن الأبدية : الطبيعة وحب الله!

١٣

لم أقراء بضع صفحات الا وقد غير العجوزان والفتاة والغلام حالتهم وجلستهم

رأيت الصياد واضعا كوعه على رَكبته وحانيا أذنه نحوى ناسيا غليونه

والعجوز جالسة أمامى شابكة أصابعها تحت ذقنها بحركة فقراء النساء الجاثيات على أرض المعبد يستمعن كلمة الله ، ويبيبوا قد نزل عن جدار الشرفة حيث كان جالساً ووضع قيثارته بهدوء على الارض قابضاً بكفه على يدها لئلا يهر الهواء أوتارها

وجرازيلا التى كانت تجلس عادة بعيدة عنا ، أخذت تقترب منى رويدا ، كما لو وجدت فى الكتاب قوة جاذبة تقربها ، وهى متكئة على الجدار الذى كنت نائماً أسفله ، كما يقف المصارع الجريح ، وكانت تنظر بعينيها الكبيرتين المفتوحتين إلى الكتاب تارة وإلى شفتى التى كانت تسيل منها القصة أخرى أو الى الفضاء بين شفتى والكتاب كما لو كانت تبحث بنظرها عن الملاك المختفى الذى يترجمه لى . وكنت أسمع تنفسها المضطرب يتقطع أو يسرع تبعاً لخفقان القصة. كتنفس رجل قد تعب من صعود جبل يجلس من آن لآخر ليستريح .

وقبل ان أصل الى منتصف القصة كانت الفتاة المسكينة قد نسيت كلفتها معى ، فكنت أشعر بحرارة تنفسها على يدى واضطراب شعرها على جبينى . وتساقطت من خدها دموع حارة بللت صفحات الكتاب بجانب أصابعى .

١٤

لم يسمع شىء سوى صوتى البطىء يترجم لعائلة الصياد قصة

القلب هذه، وصوت تلاطم امواج البحر على الشواطىء، هنالك تحت أقدامنا .

وكان هـذا الصوت متفقاً مع القراءة ، فكأنه ختام القصـة يضطرب فى الهواء، فى أول القصة وطول مدتها .

وكلما أخذت القصة تسرد أمام سامعيها كلما زاد اهتمامهم .

وكنت حين أتردد صدفة فى ايجاد التعبير الذى يفيـد معنى الكلمة الفرنسـية ، كانت جرازيلا التى تحمـل المصـباح . مظللا بملابسها تقتربه من صفحات الكتاب وتكاد تحرقه فى استعجالها، كما لو ظنت أن ضوء النار يسرع فى اخراج المعنى العقلى أمام عينى، ويوجد الكلمات على شفتى فى الحال

فكنت أبعـد المصـباح مبتسما ، دون أن أحول نظرى عن الصحيفة، وأشعر بحرارة ، موعها على أصابعى،

١٥

ولما وصلت إلى حيث تُطلب ڤيرجينى إلى عمتها فى فرنسا ، وتشعر بتمزق قلبها وهى تحاول تسـلية پول تحت أشجار الموز، وتحـدثه عن عودتها وتشـير إلى البحر الذى سـيحملها ، أغلقت الكتاب وأجلت القراءة للغد .

تلك كانت ضربة لقلب العائلة . فتقـدمت جرازيلا وجثت أمامى ثم أمام صديق وتوسلت الينا أن نتمم القصة ولكن لم يجدها

ذلك نفعاً ، اذا أردنا أن نطيل شغفها و نتمتع بالمنظر ، فاختطفت الكتاب من يدى وفتحته كما لو كانت قادرة بقوة إرادتها أن تفهم معنى حروفه .

جعلت تخاطبه و تقبله ، ثم وضعته باحترام على ركبتى وشبكت يديها ونظرت إلى متوسلة ، وقد أخذ وجهها الهادى الضاحك شيئاً من حياة القصة المحزنة ، وعلاه اضطراب التأثر من حمية الرواية المؤثرة بما فيها من الشعور ، حتى يخيل أن ثورة فجائية حولت هذا المرمر الجميل والى لحم ودموع ، إذ شعرت الفتاة بأن روحها النائمة حتى الآن قد ظهرت لها فى روح ڤيرچينى . وكأنها كبرت فى هذه الساعة ست سنين من عمرها . فكانت ألوان الشهوة العاصفة قد علت جبينها وبياض عينيها الأزرق وخديها ، كأنها ماء هادئاً أتت تتصارع فيه الشمس والريح والظلمة فجأة لأول مرة .

لم تمل مشاهدتها على تلك الهيئة ، هى التى لم تحرك فينا حتى الآن الا عواطف السرور والفرح كادت تحرك فينا الاحترام . ولكنها توسلت إلينا بلا جدوى أن نستمر فى القراءة : اذ لم نرض أن ينتهى تأثيرنا دفعة واحدة ، ولا أن يجف فى يوم واحد ينبوع هذه الدموع الجميلة ، التى نتمتع برؤياها . فخرجت مقطبة الجبين وأطفأت المصباح بغضب

١٦

وفى اليوم التالى إذ رأيتها تحت الكروم أردت ان أخاطبها فأدارت وجهها كشخص يخفى دموعه ورفضت أن تجيبنى، وكنا نرى من السواد المحيط بعينيها، وصفرة خديها، وضغط خفيف جميل فى ركنى فمها، أنها لم تذق للنوم طعما ، وان قلبها مازال حزينا من كروب أمس الوهمية .

تأثير عجيب لكتاب على قلب فتاة أمية من عائلة جاهلة بقوة كما لو كان حقيقياً ! كتاب كانت قرائته حادثا فى حياة فتاة !

ذلك أنى حين ترجمت مأساة الغرام ، ترجمت المأساة الطبيعة فان مهدى هذين الطفلين عند أقدام والدتين فقيرتين، وحبهما الطاهر، وفراقهما القاسى، وهذه العودة التى خدعها الموت، وهذا الفراق، وهذين القبرين اللذين لا يحويان سوى قلب واحد تحت أشجار الموز، حوادث يشعر بها العالم بأسره ويفهمها ، سواء فى القصر أو فى كوخ الصياد .

يذهب الشعراء بعيدا فى بحثهم عن العبقرية ، بينما هى فى القلب يكفى لبعض نغمات بسيطة، توقع صدفة على تلك الآلة، التى صنعها والاله نفسه، كى يكون قرناً بأسره، ولاشتهارهم شهرة ، وليكونوا أحس من الشعور .

فالعظيم يُمِل، والجميل يَخْدَع، ولكن البليغ لا يفشل فى الفن، فمن عرف كيف يؤثر، عرف كل شىء.

تحوى الدمعة الواحدة من العبقرية أكثر مما تحويه جميع المتاحف ودور الكتب التى فى العالم بأسره.

فالانسان كالشجرة التى نهز لتسقط أثمارها: ولا يهتز الانسان دون أن تتساقط منه الدموع.

١٧

كان المنزل حزيناً طول النهار كأن حادثا مؤلماً داهم العائلة المسكينة

فاجتمعنا لتناول الطعام دون أن يفوه أحدنا بكلمة، وافترقنا والتقينا دون أن يبتسم أحدنا للآخر.

وكنا نرى أن جرازيلا تؤدى أعمالها بلا شغف، وتنظر إلى الشمس من آن لآخر لتتأكد من أنها آخذة فى الغروب، فانها لم تنتظر شيئاً فى ذلك اليوم سوى الليل.

ولما أتى المساء وجلسنا على السطح فى أماكننا المعتادة فتحت الكتاب وأتممت القراءة بين البكاء. فكان الاب والام والاولاد وصديق وأنا، كلنا مشتركين فى الانفعال العام.

كان صوتى حزينا مؤثراً، يتبع حزن الحوادث. ووقار الكلمات، دون أن أدرك الامر، فكانت الكلمات الاخيرة من القصة، كأنها آتية من بعد، فتسقط من أعلى فى النفس، بالصوت الذى يخرج من صدر خال، سكت القلب فيه، ولم يعد يشترك مع أحياء العالم إلا فى الحزن والدين والذكرى!

١٨

لم نستطع بعد ذلك أن نفوه بكلمات لا فائدة منها. فبقيت جرازيلا جامدة بلا حراك فى الهيئة التى كانت عليها وهى تنصت للقراءة كأنها لا تزال تستمع.

ولم يجسر أحدمنا على شق السكوت، هذا التصفيق الصامت تصفيق التأثرات الحقيقية الدائمه

فكان كل منا يحترم فى الآخرين الافكار التى يشعر بها فى نفسه.

انطفأ المصباح ببطء دون أن يمد أحدنا يده لاحياء ضوئه، ثم قاموا وانسحبوا فى سكون وبقيت أنا وصديق وحيدين، محتارين فى قدرة الحقيقة الكلية وبساطة الشعور عند كل الناس فى كل الأزمنة وفى كل البلاد

لعل شعورا آخر كان يتحرك اذ ذاك فى اعماق قلبينا . فكانت صورة جرازيلا الجذابة ، وقد زادتها الدموع تجليا ، وأدخلها الحب فى سر الآلام ، تطفو فى أحلامنا بجانب ڤيرچينى ، هذا المخلوق السماوى

ظل هذان الاسماء ، وهتان الفتاتان ، مختلطين فى تجليات تائهة تسحر وتحزن نومنا المضطرب حتى الصباح

قرأنا فى مساء اليوم الثانى واليومين التاليين القصة نفسها ثانية لجرازيلا . وما كانت تمل استماع القصة لو قرأناها مئتى مرة اخرى

هذا هو طبع عقول الجنوب ، فهى كثيرة الخيال واسعة المدى ، ولا تبحث عن تغيير الموسيقى أو الشعر . فليست هتان الا موضوعين ينسج عليهما كل فرد شعوره ، فيتغذى منها دون أن يشبع كما تفعل العامة ، فتتغذى من الدور نفسه ومن القصة نفسها قرونا كاملة

والطبيعة نفسها ، هذه الموسيقى وهذا الشعر الأعلى ، ماذا عندها سوى نغمتين أو ثلاثة ، واحدة دائما ، تحزن بها الانسان أو تسره ، من أول شهيق الى آخر زفير ؟

١٩

انتهى ريح الاعتدال عند شروق اليوم التاسع، وأصبح البحر هادئا بعد مرور بضعة ساعات . وكأن جبال شاطئ ناپلى و كذلك ماؤه وسماؤه، كانت سابحة فى سائل أصفى وأشد زرقة مما كانت عليه فى أشهر الحرارة ، كما لو كان البحر والفلك والجبال قد شعرت باول رعشة من الشتاء، التى تبلور الهواء وتجعله يزهو كمياه الثلاجات المتجمدة . ثم أخذت أوراق الكرم الصفراء وأوراق أشجار التين السمراء تتساقط وتغطى الارض

كان العنب قد تم جمعه وجفف التين على السطح ووضع فى سلات كبيرة من الحشائش البحرية تنسجها النساء . وكان المركب عجلا لتجريب البحر، والصياد كذلك لاعادة عائلته الى المارچلينا

فنظفوا المنزل والشرفة ووضعوا حجرا كبيرا على ينبوع الماء لئلا تفسد مياهه بأوراق الاشجار اليابسة ومياه أمطار الشتاء . ثم أخرجوا الزيت من البئر الصغيرة ووضع فى جرات من الفخار وحملتها الاطفال الى الزورق . وربطت الأغطية بالحبال وحملت كذلك

أوقد المصباح مرة أخرى أمام تمثال الغذراء المتروك فى المنزل، وصلوا أمامها الصلاة الاخيرة لتوصيتها على المنزل وشجرة التين

والكروم التى سيتركونها كذلك مدة الشتاء الطويلة . ثم اقفلوا الباب وأخفوا المفتاح فى شق من الصخر تغطيه النباتات الزاحفة حتى اذا أتى الصياد فى الشتاء أمكنه أن يجده ليزور منزله. ثم نزلنا الى البحر وساعدنا العائلة المسكينة فى تحميل الزيت والخبز والفاكهة

الفصل الثالث

١

عدنا الى نابلى موازيين لخليج بابا ومنحدرات البوزيليب الوعرة . وكانت هذه العودة عيدا حقيقيا للفتاة والاولاد ولنا وفرحا عظيما لأندريا . فدخلنا المارچلينا عند تخيم الظلام ونحن نغنى.

لم ينته اعجاب اصحاب اندريا وجيرانه بالزورق الجديد. فساعدوه فى تفريغ حمولته وشده على الساحل . ولم يلتفت أحد لنا لاننا حذرناه من أن يقول لمن هو مدين به . وبعد أن سحبنا الزورق فوق الرمال وحملنا سلات التين والعنب فوق محزن اندريا بجانب باب الغرف الثلاثة المنخفضة التى تسكنها العجوز والأطفال وجرازيلا انسحبنا دون أن يبصرنا أحد

فاخترقنا طرق نابلى المزدحمة وعدنا الى مساكننا منقبضى القلب

٢

اتفقنا على العودة للمعيشة نفسها مع الصياد كلما سمحت حالة البحر بالخروج للصيد بعد أن نستريح بضعة أيام فى نابلى . إذ قد تعودنا بساطة الملبس وعراء الزورق حتى أصبحت حجرتانا وفراشها وأثاثها وملابسنا الحضرية أبهة مضايقة ومضجرة فى أعيننا . وكنا نأمل أن لانعود اليها الا بضعة أيام فقط .

ولكن حين ذهبنا الى مكتب البريد لنأخذ خطاباتنا المتأخرة وجد صديق خطابا من والدته تدعوه فيه للعودة الى فرنسا بلا تأخير لحضور زفاف اخته وتخبره بأن زوج اخته سينتظره فى روما . ووجدنا بمقارنة التواريخ انه قد وصل اليها فعلا الآن . فلم يجد مناصاً من السفر .

كان واجباً على ان أسافر معه ، ولكننى لاأدرى أى جاذب للعزلة والتجول حجزنى . وربما كانت لحياة البحار ومنزل الصياد وذكرى جرازيلا بعض التأثير فى الامر ولكنه كان غير متعين. وكان للحرية وكبريائى ، واكتفائى بصحبة نفسى على بعد

ثلثمائة فرسخ عن بلادى، وهوى الغامض والمجهول ، هذا التخيل الهوائى الذى تعشقه مخيلات الشباب ، تاثير أعظم .

افترقنا بحنان رجالى ووعدنى بلحاق بعد تأدية واجبه كابن وأخ . وأعارنى خمسين (بنتو) لسد الفراغ الذى أوجدته هذه الشهور الستة فى جيبي وسافر .

تركنى هذا السفر ، وغياب هذا الصديق الذى كان لى كالاخ الاكبر لاخ صغير لايزال طفلا ، فى وحدة تزيدها الساعات عمقاً . وكنت أشعر بأننى نازل فيها كانى نازل فى فى هوة سحيقة .

وافكارى وكلماتى وتأثراتى التى كانت تتصرف سابقاً بتبادلها معه بقيت فى نفسى وفسدت فيها ، وحزنت وسقطت على قلبى كثقل لاقدرة لى على إزاحته .

فهذه الاصوات التي لايهمنى منها شئ ، وهذه الجموع التى لايعرف أحد فيها اسمى ، وهذه الحجرة الخالية من نظر يجيبنى ، وهذه المعيشة فى الفندق حيث لايقابل المرء إلا غرباء ، وحيث يجلس إلى مائدة صامتة بجوار رجال جدد لايهتمون لشىء ، وهذه الكتب التى قرأتها مئات المرات ، وحروفها الثابتة التى تفيد الكلمات نفسها فى الجملة عينها فى المكان ذاته ، كل ذلك الذى كنت

أظنه جميلا فى روما وناپلى قبل تجولاتنا وحياتنا المتشردة المتنقلة فى الصيف ، كان يخيل لى أنه موت بطىء . فكنت أغرق قلبى فى أحزان الوحدة .

حملت هذا الحزن بضعة ايام من طريق لآخر ، ومن مسرح لمسرح ، ومن مطالعة لأخرى ، دون أن أستطيع التخلص منه

مرضت بما يعرف بـ(الحنان الى الوطن) ، فشعرت بثقل فى رأسى. ولم تعد قدماى تقوى على حملى ، وكنت أصفر الوجه نحيلا . فذهبت شهيتى ، وأخذ السكون يحزننى ، والحركة تؤلمنى ، وكنت أمضى الليالى نائماً على فراشى دون أن أجد رغبة أو قوة للنهوض

كان قريب والدتى العجوز وهو القريب الوحيد الذى قد يهتم بى قد ذهب لقضاء بضعة أشهر فى جبال أبروز على مسافة ثلاثين فرسخاً من ناپلى حيث كان ينوى انشاء معامل صناعية. فطلبت الطبيب فحضر ونظر الى وجهى وجس النبض وقال لى أنى لست مريضاً والحقيقة هى أنى مصاب بمرض لا يستطيع الطب الى شفائه سبيلا ، مرض خيالى ونفسى ، ثم تركنى وانصرف ولم أره بعد ذلك

٤

شعرت فى اليوم الثانى رغم ماقاله الطبيب بازدياد مرضى فبحثت فى ذهنى عمن يمكننى أن أنتظر منه المعونة والشفقة اذا لم أستطع النهوض . فأتت بطبيعة الحال أمام ذهنى ذكرى عائلة المارجلينا الفقيرة التى عشت عندها . فأرسلت غلاما كان يخدمنى إلى اندريا ليخبره أن أصغر الأجنبيين مريض ويطلب أن يراه .

ولما وصل الغلام برسالتى كان اندريا وبيينو قد خرجا إلى البحر للصيد، والعجوز قد ذهبت تبيع الأسماك على رصيف شايا، وجرازيلا بقيت وحيدة مع أخويها الصغيرين فى المنزل . فعهدت بهما الى جارة لهم وارتدت أجد ملابسها وتبعت الغلام الذى دلها على الطريق والدير القديم وتقدمها على السلم .

سمعت طرقاً خفيفاً على باب حجرتى وانفتح كأن يدا خفية دفعته، ورأيت جرازيلا ، فصرخت مشفقة حين رأتنى ثم تقدمت مسرعة نحو فراشى ، ولكنها عادت فتمالكت نفسها ووقفت ويداها مشبكتين ورأسها مائل على كتفها الأيسر ، وقفة الشفقة وقالت لنفسها بصوت ضعيف :

— لله ما أشحب لونه! كيف قد غيرت هذه الايام القليلة وجهه لهذه الدرجة !؟ »

ثم تسائلت ملتفة حولها تبحث بنظرها عن صديق :

— وأين الآخر ؟ »

فقلت مجيباً لها :

— لقد سافر ، وانا وحيد ومجهول فى نابلى »

— سافر ؟ وتركك مريضاً وحيداً هكذا ! أما كان يحبك إذا ؟ آه ! لو كنت مكانه لما سافرت أنا ، ومع ذلك فلست أخاك ، ولا أعرفك إلا منذ يوم الزوبعة ! »

٥

أفهمتهما أننى لم أكن مريضاً حين سافر صديقى ، فقالت بحميه ، بلهجة عتاب يخالطه العطف والهدوء :

— ولكن كيف لم تفكر أن لك أصدقاء فى المار چلينا ؟ »

ثم أردفت بحزن ناظرة الى أكمامها وملابسها :

— آه ! قد فهمت ، هو أننا فقراء يخجلك دخولنا هذا المنزل الجميل ! »

ثم جففت عينيها التى مازالت تنظر الى جبينى وذراعى النحيلين وقالت :

— هذا سواء لدينا ، فكنا نأتى ولو كنت أحتقرتنا »

فأجبت مبتسما:

— مسكينة جرازيلا : لا أرانى الله يوما أخجل فيه من محبى ! »

٦

جلست على مقعد بجانب فراشى وتحادثنا قليلا وصوتها، وصفاء عينيها ، وخلاعة هيئتها الهادئة المطمئنة ،وسذاجة وجهها ، ولفظها المتقطع الشجى الخاص بنساء الجزائر ، الذى يذكر كما فى الشرق لهجة الجارية المتواضعة حتى فى خفقان الحب،وأخيراً ذكرى الأيام الجميلة التى قضيتها معها فى الشمس بجانب المنزل ، وهذه الشموس، شموس بروشيدا التى يخيل لى أنها لاتزال تسيل أشعتها من جبينها وجسمها وقدميها فى حجرتى المحزنة ،كل ذلك كان حين أنظر اليها ،وأنصت لها ، يرفع عنى الملى وسقمى،حتى ظننت أننى قد شفيت فجأة ،وكان يخيل لى أننى سأنهض وأمشى بعد خروجها

ولكننى لشعورى بالراحة فى وجودها أطلت فى الحديث بقدر مافى وسعى وأبقيتها منتحلا ألف سبب مخافة أن تذهب مسرعة آخذة معها كل الراحة التى كنت أشعر بها

خدمتنى جزءاً من النهار بلا خوف ولا كلفة ولا حياء كاذب، كما تخدم الأخت أخاها ،دون أن تذكر أنه رجل. فذهبت واشترت

لأجلى برتقالا . وكانت تقطع قشره بأسنانها الجميلة لتخرج عصيره فى كوبتى وتضغط عليه بأصابعها

ثم أخرجت من عنقها صورة صغيرة من الفضة معلقة فى شريط أسود على صدرها وشبكتها بدبوس الى ستار فراشى الأبيض، وأكدت لى أنى سأشفى عن قريب بفضل هذه الصورة المقدسة

تركتنى حين أخذت الشمس فى الغروب ، ولكن بعد أن رجعت من الباب الى فراشى عشرين مرة للسؤال عما إذا كنت فى حاجة لشىء، ولتوصيتى بأن أتوسل باخلاص للصورة قبل نومى

٨

سواء بفضل الصورة أو الدعاء الذى وجهته جرازيلا لها طبعا ، أو للتأثر اللطيف بظهور العطف والاهتمام الذى رأيته فى شكلها ، أو سهو وجودها الجذاب ومحادثتها الذى سببته فى أفكارى هو الذى هدأ الضيق الذى اعترى جسمى المريض فانى ما كدت تخرج من حجرتى حتى استغرقت فى نوم هادىء عميق

وعند استيقاظى فى الصباح ورؤيتى قشور البرتقال المتراكمة على أرض الحجره ، ومقعد جرازيلا لايزال متجها نحو فراشى ، كأنها تركته وستعود للجلوس عليه ثانية ، والصورة الصغيرة معلقة

على الستار بشريطها الحريرى الأسود وكل آثار هذا الوجود وهذه العنايات، عنايات المرأة التى نقصتنى زمنا طويلا، تخيلت قبل أن أفيق من النوم تماما، أن والدتى أو إحدى أخواتى دخلت حجرتى أثناء الليل. ولم يكن الا حين تفتحت عيناى واسترجعت أفكارى واحدة واحدة أن ظهر لى وجه جرازيلا كما رأيته بالأمس

كان ضوء الشمس صافيا والراحة قد قوت أعضائى وثقلت وحدة حجرتى على قلبى، وأيضا الحاجة الى سماع صوت معروف، تضغط على قلبى بشدة حتى قمت فى الحال رغم ضعفى وتمايلى وأكلت باقى البرتقال وركبت عربة الى المارچلينا

٨

لما وصلت منزل أندريا الصغير صعدت السلم الذى ينتهى الى سطح المخزن وتنفتح عليه أبواب الغرف. فوجدتهم يستعدون للخروج، مرتدين أجمل ملابسهم لزيارتى. وكان كل منهم يحمل فى سلة أو منديل أو فى يده هدية، ظن هؤلاء المساكين أنها تسر أو تنفع المريض. هذا زجاجة نبيذ أبيض مذهب من إيشيايسد فوهتها بعض الحشائش ذات الرائحة الجميله، وهذه بعض التين المجفف، وهذه بعض (البشمله)، والأطفال برتقالا، إذ قد سرى قلب جرازيلا إلى جميع أعضاء العائله

٩

صرخوا دهشة حين رأوني أمامهم نحيلا ضعيفا ولكن مبتسما وتركت جرازيلا البرتقال يتدحرج من حجرها وأخذت تصفق بيديها وأسرعت نحوي وهي تصرخ :

— لقد قلت لك أن الصورة ستشفيك سريعا إذا وضعت ليلة واحدة على فراشك ، ألم أصدق قولي ؟ »

فأردت أن أردها إليها وأخرجتها من صدري حيث وضعتها عند خروجي من حجرتي فقالت

— قبلها أولا ! »

فقبلتها وكذلك أطراف أصابع يدها التي مدتها لتأخذ بها الصورة مني . ثم قالت وهي تردها إلى عنقها وتضعها في صدرها ثانية :

— سأردها إليك إذا مرضت ثانية . وهي ستنفعك لكلينا بعد الآن »

جلسنا على السطح في شمس الصباح وكانت تبدو على وجوههم علامات السرور كأنهم وجدوا أخا أو ولداً عاد بعد سفر طويل . فان الوقت الكافي لتكوين الصداقة الحميمة في الطبقات العالية لا يوجد في الطبقات الوضيعة . فالقلوب في الأخيرة تتفتح بلا

احتراس وتلتحم جروحها بسرعة لتجرد الشعور من المصالح الخفية وتتكون رابطة قرابة فى ثمان أيام بين رجال الطبيعة أكثر مما تتكون فى عشرة سنوات بين رجال الهيئة الاجتماعية فكادت تربطنى بتلك العائلة قرابه رحيمة

ثم سأل كل منا الآخر عما حدث له من الخير أو الشر من ساعة افتراقنا

كانت العائله فى أوج سعادتها والزورق مبارك والشباك سعيدة . فلم يكن الصيد أكثر منه الآن فى حياتهم إذ لم تكف العجوز لبيع السمك على العامة أمام منزلهم . وكان بيبنو قويا ونافخا بقدر بحار فى العشرين ولوأنه لم يتجاوز الثانية عشرة من سنه . وكانت جرازيلا تتعلم صناعة أرقى بكثير من مهنة العائله الفقيرة . فمرتبها الكبير بالنسبة لعمل فتاة وسوف يزدار تبعا لكفاءتها يكفى لكسوة وتغذية أخويها وجمع دوطة لها الى أن تبلغ الحب عمراً وفكرة

تلك كانت كلمات جدتها وكانت تشتغل جرازيلا فى المرجان أى فى تقطيعه وتسوية أشكاله . وتجارة المرجان وصناعته هى ثروة مدن شاطىء إيطاليا إذ ذاك . وكان أحد أخوال جرازيلا أخى والدتها المتوفاة رئيس عمال أكبر المصانع فى ناپلى وكان

غنياً في مركزه ومدير العمال كثيرين من رجال ونساء. وكانوا لا يكفون لسد الطلبات الكثير لهذا الصنف من الكماليات الواردة عليه من جميع أنحاء أوروبا. فتذكر ابنة أخته وحضر لادخالها بين عاملاته من بضعة أيام

أتى لها بالمرجان والآلات وعلمها الدروس الأولى لمهنتها البسيطة، وكانت العاملات الأخرى تشتغلن في المصنع، أما جرازيلا فكانت تشتغل في منزلها لتغيب العجوز والصياد الاضطراري وبقائها الحارس الوحيد لأخويها. ويرسل خالها إليها أبنه الكبير لعدم إمكانه التغيب عن المعمل كثيراً

وابن خال جرازيلا شاب في العشرين هادىء متواضع منتظم وعامل مجد. ولكنه بسيط العقل ضعيف الصدر مشوه القامة وكان يحضر في المساء بعد إغلاق المصنع ليفحص عمل ابنة عمته ويعلمها إتقان استعمال الآلات وكذلك دروس القراءة والكتابة والحساب الأولية

ثم قالت لي الجدة حين حولت جرازيلا عينيها عني:

— لنأمل أن ينتهي الأمر لصالح الاثنين وأن يصبح الرئيس خادم خطيبته »

١٠

رأيت من ذلك أن فى ذهن المجوز فكرة فخر وطمع بالنسبة لحفيدتها . ولكن جرازيلا ما كانت تشك فى الأمر

قادتنى الفتاة إلى غرفتها لترينى ماصنعته من المرجان وكان مصفوفا على القطن بداخل علبة من المقوى فوق فراشها . ثم أرادت أن تصنع أمامى قطعة . فأخذت أدير العجلة بقدمى وأنا واقف أمامها بينما هى تقرب فرع المرجان الأحمر من المنشار الدائرى لقطعه ثم تعطى القطع أشكالا كروية بيردها على الرحا

كان التراب الأحمر يغطى يديها ويتطاير إلى وجهها أحيانا ، فيكسو شفتيها ووجنتيها حمرة خفيفة تزيد عينيها زرقة وجمالا . ثم نفضت ملابسها وشعرها الأسود ضاحكة من التراب الذى تساقط على وغطانى . وقالت :

— أليست تلك مهنة جميلة لفتاة مثلى ؟ نحن مدينون له بكل شىء ، من مركب جدى والخبز الذى نأكله إلى هذه العقود والأقراط التى قد ألبسها يوما من الأيام بعد أن أصنع منها كثيراً لمن هن أغنى وأجمل منى . »

هكذا قضينا الصباح نتحادث ونهيم فرحا ونشتغل دون أن

أفكر فى مغادرتهم . واشتركت معهم فى طعام الغداء . وكانت الشمس والهواء الطلق، وارتياح الضمير، وبساطة الأكل من الخبز والسمك والفواكه المحفوظة فى المخزن، قد ردت الى شهيتى وقواى

ثم ساعدت الصياد بعد الأكل فى إصلاح شبكة قديمة على السطح . وكان صوت وقع قدم جرازيلا المنتظم وهى تدير الرحا ، وصوت ركة العجوز ، وأصوات الأطفال يلعبون بالبرتقال على باب المنزل ، يصحب شغلنا بتوافق شجى

وتخرج جرازيلا الى الشرفة من آن لآخر لنفض شعرها، فنتبادل نظرة أو كلمة ودية أو ابتسامة . وكنت أشعر بأنى سعيد لأعماق قلبى دون أن أعرف من أى شىء، ووددت أن أكون من أشجار العود المزروعة داخل السياج المحيط بالحديقة، أو ورلا من الأورال التى تتدفأ فى الشمس بجوارنا على الشرفة، والتى تسكن مع هذه العائلة الفقيرة فى شفوق جدران المنزل !

١١

أخذت نفسى ووجهى فى الانقباض كلما أخذ النهار فى النقصان، وزاد حزنى حين تذكرت أنه يجب على أن أعود إلى حجرتى بالدير. وكانت جرازيلا أول من لاحظ ذلك فذهبت إلى العجوز

وأسرت إليها بضع كلمات بصوت منخفض . فقالت لى الجدة وكأنها تخاطب أحد أولادها:

— لماذا تتركنا هكذا ؛ ألم نكن مسرورين جميعاً باجتماعنا معا فى بروشيدا ؛ أمازلنانحن أنفسنا فى ناپلى؟وأنت تشبه عصفوراً فقد أمه يحوم صارخا حول الأوكار ، أسكن معنامنزلنا إذاوجدته لائقالسكنى سيدرفيع مثلك . فى المنزل ثلاثة غرف . وبپينو ينام فى المركب وستكتفى جرازيلا بغرفة الأطفال مادامت تشتغل نهاراً فى غرفتك . نفذ غرفتها وانتظرهنا رجوع صديقك . لأن وجود شاب مثلك طيب القلب حزينا وحيداً بين طرقات ناپلى يحزن عند التصور . »

فرح الصياد وبپينو وكذاً الأطفال اللذين يحبان الأجنبي لفكرة الجدة الطيبة وألحوا بشده كلهم معا على بالقبول

أما جرازيلا فلم تقل شيئاً ولكنها كانت تنتظر ردى على الحاح أقاربها بقلق ظاهر، تحاول اخفاءه بتكلفها عدم الاكتراث، وكانت تضرب الأرض بقدمها بحركة قوية غير مقصودة عند كل سبب من أسباب اللياقة التى كنت أبديها لعدم القبول

أخيراً رفعت عينى إليها فرأيت عينيها مغرورقتين بالدموع ويدها تشد أوراق شجرة ريحان على الشرفة، وتقصفها واحدة واحدة بين

أصابعها . ففهمت هذه الحركة أكثر من مقالات طويلة ، وقبلت الاشتراك فى المعيشة المعروض على

فصفقت جرازيلا بيديها فرحا وأسرعت لاتلتفت وراءها إلى حجرتها كأنها تريد أن تؤاخذنى على كلماتى دون أن تترك لى وقتاً أستدركها فيه

١٢

نادت جرازيلا بپينو ، وفى لحظة حملت هى وأخوها إلى حجرة الأطفال فراشها وأثاثها الحقير ومرآتها الصغيرة ذات الاطار الخشبى والمصباح النحاس وصورتين أو ثلاثة للعذراء كانتا معلقتين على الجدار والمنضدة والعجلة التى تشتغل عليها المرجان . ثم أتيا بماء من البئر ورشا بها أرض الغرفة ثم أزالا من جدرانها وبلاطها كل أثر لتراب المرجان ووضعا على النافذة أحسن انائين وأكثرهما رائحة بين آنية الزهر التى على الشرفة . وما كانا يعتنيان بغرفة عروسين أكثر من هذا الاعتناء لو كان پيپو سيأتى بعروسه فى هذه الليلة إلى منزل جده . وكنت أساعدهما فى هذه العمل ضاحكا .

فلما تم كل شىء ، أخذت معى بپينو والصياد لأشترى وأحضر الأثاث القليل اللازم لى . فاشتريت سريراً صغيراً من الحديد بكل

مايلزمه من المفروشات، ومنضدة من الخشب الأبيض وكرسيان من الخيزران وموقداً صغيراً من النحاس تحرق فيه بذور الزيتون بقصد التدفئة فى ليالى الشتاء وكانت حقيبتى التى أرسلت فى استحضارها تحتوى على باقى ما أحتاج إليه

لم أشأ أن أضيع ليلة وأحدة من هذه الحياة السعيدة التى كأنها ردت إلى عائلتى . فنمت فى الليلة نفسها فى مسكنى الجديد . ولم أستيقظ إلا على صياح طيور السنونو الفرحة التى دخلت حجرتى من كسر فى زجاج النافذة ، وعلى صوت جرازيلا تغنى فى الغرفة المجاورة ويصحب غناءها صوت الرحا المنتظم

١٣

فتحت النافذة التى تطل على حدائق صغيرة لبعض الصيادين محصورة بين صخور جبل البوزيليب وساحل المارچلينا

فرأيت بعض صخور رمادية قد زلقت فى تلك الحدائق بجوار المنزل وأخذت أشجار التين التى تكاد تسحقها هذه الصخور تقبض عليها بأياديها الملتوية البيضاء وتغطيها بأوراقها العريضة الثابتة .

ولا يوجد فى تلك الجهة من المنزل سوى هذه الحدائق الصغيرة

وبعض الآبار قد وضعت عليها عجلات تديرها الحمير لرى بعض نبات الشمر والكرنب واللفت وترى بعض نساء تنشرن الملابس على حبال مشدودة بين أشجار الليمون وبعض أطفال فى قمصانهم يلعبون أو يبكون على شرفات منازل صغيرة قائمة فى تلك الحدائق

كان يخيل لى أن هذا المنظر المحدود العادى، الأغبر، لضاحية من ضواحى مدينة كبرى، لطيف بالنسبة لأوجه المنازل العالية التي تطل على الطرقات الضيقة العميقة بين زحام الأحياء التى قد تركتها

فكنت استنشق الهواء النقى بدلا من التراب والنار والدخان التى تخالط ذلك الهواء البشرى الذى استنشقته من قبل، واسمع نعيق الحمير، وصياح الديكة، وحفيف الأوراق، وأنات البحر المتقطعة، لا بد من جعجعة العربات، وصراخ الغوغاء، ورعد تلك الأصوات العالية التى لا تترك للأذن راحة ولا للعقل مجالا للتفكير بين طرقات المدن الكبيرة

لم أجسر النهوض من فراشى، حيث كنت أتمتع بالشمس وهذه الأصوات القروية، وطيران هذه العصافير، وهذه الراحة التى يكاد لا يقطعها إلا التفكير، وحين أرى عراء الجدران، وفراغ الحجرة وغيبة الأثاث، أسر إذ أذكر أن هذا المنزل الحقير يحبنى على الأقل، وأنه لا يوجد بساط أو سجف حريرية تساوى بعض

المودة ، فكل ذهب العالم لايشترى ضربة واحدة لقلب، ولاشعاع واحد لشفقة النظر فى أعين من لايهتمون

عللت هذه الأفكار فى نفسى أثناء رقادى، وشعرت بأنى حييت ثانية إلى الصحة والسلام ، ودخل أثناء ذلك بينو حجرتى مراراً للاستفهام عما إذا كنت فى حاجة لشىء وأحضر لى فى فراشى شيئاً من الخبز والعنب أكلته وأنا ألقى البذور والفتات لطيور السنونو، وكان الظهر قد أزف والشمس تدخل بأشعتها الكثيرة وفتورها الخريفى اللطيف حين نهضت من فراشى

اتفقت مع الصياد وزوجه على مبلغ بسيط لايجار غرفتى الصغيرة ولاضافة شىء الى مصروف المنزل ، كان المبلغ زهيداً ولكنهم كانوا يعتبرونه جسيما، ويرى من ذلك أنهم كانوا لايحاولون الربح من ورائى بل يتألمون فى قلوبهم من أن فقرهم وبساطة معيشتهم لاتسمح لهم بتقديم اكرام لى كان يزيدهم فخرا لو لم يكلفهم شيئاً

كانت تكفى لمصروفى اليومى بضعة قطع نحاسية من النقود الصغيرة المتداولة بين العامة فى ناپلى ، ولم أفهم فى حياتى كم تستقل السعادة عن الأبهة ، وكم يشترى المرء بقطعة نحاسية أكثر من كيس من الذهب ، الاحين يعرف المرء أين يوجدها الله

٢٤

قضيت على تلك الحال آخر شهور الخريف وأول شهور الشتاء. وكان زهاء شهور ناپلى هذه وصفاؤها يخلطها بالشهور التى تقدمتها فلم يكدر شيء ما صفاء حياتنا وانتظامها، وظل الصياد وحفيده يصيدان بجانب الشاطىء لانهما لم يستطيعا الخروج الى البحر بسبب الزوابع والعواصف الكثيرة فى ذلك الفصل، وظلت العجوز تبيع صيدهما على الرصيف وكان الثمن يقوم بحاجتهم

أما جرازيلا فانها برعت فى صناعتها وأخذت تنمو وتزداد جمالا وبهاء فى الحياة اللطيفة المحتجبة التى كانت تعيشها من عهد اشتغالها بالمرجان، وكان مرتبها الذى ينقدها خالها إياه فى أيام الأحد يكفى للمحافظة على نظافة أخويها ونظافة لباسيهما ونفقة المدرسة لهما، ويسمح كذلك لها ولجدتها ببعض أجزاء الملبس الجميلة الثمينة الخاصة بنساء جزيرتهن كالمناديل الحريرية الحمراء التى يعلقنها وراء رؤوسهن على هيئة مثلث طويل على الاكتاف، والأحذية المطرزة بالفضة التى ليس لها كعب، وصدارى حريرية بها خطوط سوداء وأخرى خضراء ومطرزة بالذهب على أطرافها، (وچاكتات) تتطاير مفتوحة على الجوانب وتظهر رشاقة القوام وحدود العنق

المزدان بالعقود ، والاقراط الكبيرة المنقوشة تتشبك فيها أسلاك الذهب وقطع اللؤلؤ الصغيرة. ترتدى نساء الجزائر اليونانية الفقيرات هذه الحلى والزخارف ولا تضطرها أى شدة من الشدائد أن تتنازل عنها

وفى الأقاليم التى يكون فيها حسن الجمال أشد منه تحت سمائنا ، وحيث الحياة عبارة عن الحب ، ليست الحلى كماليات فى نظر النساء : بل هى أول ضروريا تهن ، بل تكاد تكون الوحيدة

١٥

فحين تخرج جرازيلا فى أيام الأحد والأعياد مرتدية هذه الملابس من غرفتها الى الشرفة ، وواضعة بعض زهور الرمان الحمراء أو الدفلى على جانب رأسها فى شعرها الأسود ، وحين تتمشى وهى تسمع أصوات نواقيس الكنيسة المجاورة أمام نافذتى كطاووس ينظر الى نفسه على السطح فى الشمس ، وحين تسير ببطء بقدميها المحبوسين فى بوابيجها الصدفية ناظرة اليهما ، ثم ترفع رأسها بحركة عادية لعنقها كى يتطاير المنديل الحريرى وشعرها المرسل على كتفيها ، وحين ترانى أنظر إليها وتحمر وجنتاها خجلة من أن تكون جميلة كل هذا الجمال ، حين ذلك ، كان يؤثر على زهاء جمالها الجديد حتى

يخيل لى أنى أراها لأول مرة ، ويتحول عدم كلفتى معها العادى إلى شىء من الحياء والدهشة

ولكنها كانت بعيدة عند أن تفكر فى أن تبهر ، وكان ميلها الطبيعى إلى الحلية خاليا من كل زهو وخلاعة ، حتى كانت تسرع بعد آداء المناسك المقدسة إلى التجرد من زخارفها الثمينة ولبس ملابسها البسيطة العادية وبوابيجها ذات الكعب الخشبى الأبيض التى يسمع صوتها على الشرفة طول النهار ، كبوابيج الجوارى الشرقيات

كنت أذهب أنا معها غالبا الى الكنيسة حين لا تأتى صديقاتها لمرافقتها أولا يصحبها ابن خالها ، وأنتظرها جالسا على درجات السلم . وكنت أشعر بشىء من الزهو الشخصى عند خروجها ، كما لو كانت أختى أو خطيبتى ، وأسمع ضجات الاعجاب التى يثيرها وجهها الجميل الجذاب بين صديقاتها وشبان بحارة أرصفة المارچلينا. ولكنها لا تعبأ بشىء ، ولا ترى بين الزحام الا أنا ، فتبتسم لى من أعلى السلم ثم تصاب لأخر مرة بأصابعها المبللة بالماء المقدس ، وتنزل بتواضع خافضة بصرها الدرجات التى أنتظرها عند أسفلها

هكذا كنت أصحبها فى أيام الأعياد صباحا ومساء الى الكنيسة ، وتلك كانت النزهة الوحيده التى كانت تعرفها وتحبها

وكنت أجتهد فى هذه الأيام فى تقريب ملابسى من هيئة ملابس شبان بحارة الجزيرة بكل مافى وسعى كي لايدهش وجودى أحدا، ويعتقدون أنى أخ أو قريب الفتاه التى أصحبها . وكانت لاتخرج فى الأيام الأخرى

أما أنا فعدت شيئاً فشيئاً الى حياة الدراسة وعاداتى المنفردة التى لا يلهيها سوى صداقة جرازيلا اللطيفة وتبنى العائلة لي

فقرأت مؤرخى كل اللغات وشعراءها وكنت أكتب أحيانا، وأحاول تاره بالايطالية وأخرى بالفرنسية أن أفيض نثراً أو شعراً هذه الثورات الأولى للنفس التى يخيل لى أنها تضغط على قلبي الى ان يخفف عنها الكلام بالتعبير عنها

يظهر ان الكلام هو الغرض الذى خلق له الانسان ، وانه اوجد لينتج ثماره . فيعذب المرء نفسه ليوجد التعبير لما يشتغل في قلبه . وكلامه المدون كالمرآة ، يحتاج اليها ليعرف نفسه ويتأكد انه كائن وموجود . ولايشعر المرء بأنه كائن كامل إلا حين يرى نفسه فى مؤلفاته ، اذ للعقل بلوغ كما للجسم

كنت فى هذا السن الذى تحتاج فيه النفس لتغذية نفسها وتنميتها الى الكلام ، ولكن الميل ووجد في قبل القوة كما يحدث عاده

فاذا كتبت شيئاً كان لايعجبنى ، فالقيه باشمئزاز، وكم حملت رياح بحرنا بلى، و ابتلعت أمواجه فى الصباح ، قطعا من افكارى وشعورى فى المساء،مزقتهاعند استيقاظى وتطايرت بعيداً عنى ، غير مأسوف عليها !

١٦

كانت تدخل جرازيلا حجرتى أحيانا ، إذا رأتنى مسجونا وصامتا مدة أكثر من المعتاد ، لتختطفنى من مطالعاتى وأشغالى

فتتقدم بهدوء وراء مقعدى ، وتقف على أطراف أصابعها وتنظرمن فوق كتفى ، دون ان تفهم ماذا أقرأ أو أكتب،ثم تختطف الكتاب أو تنزع القلم من بين اصابعى بحركة فجائية وتجرى.

فأتبعها على الشرفة ، وأغضب قليلا،ولكنها كانت تضحك فأصفح عنها. ثم تعاتبنى كما تصنع الام وتقول بحمية يخالطها الجد والهزل :

— ماذا يقول لك هذا الكتاب اليوم كل هذه المده ؟ ألاتنتهى هذه الخطوط السوداء على هذاالورق الرث من الكلام معك ابداً ؟

ألا تعرف قصصا كافية تقصها علينا فى ليالى الاحد وكل

ليالى السنة كالي أبكتنى كثيراً فى بروشيدا ؟ لمن تكتب طول الليل هذه الخطابات الطويلة التى تلقيها فى الصباح الى ريح البحر؟ ألا ترى أنك تضر بنفسك ، وأن لونك يشحب،وعقلك يتوه اذا قرأت أو كتبت طول هذه المدة ؟ أليس الألطف أن تتحادث معى ، أنا التى أراك بدلا من تحادثك أياما كاملة مع هؤلاء الأموات أو هذه الأشباح التى لا تسمعك ؟ يالهى ! لماذا لم يعطنى الله عقلا بقدر هذه الأوراق ! كنت أتحدث معك طول النهار ، وأقول لك كل ماتسألنى عنه،فلا تحتاج لإتعاب عينيك هكذا ، وتحرق كل زيت مصباحك ! »

ثم تخفى كتابى وأقلامى ، وتأتى بردائى وقلنسوتى البحرية وترغمنى على الخروج كى ألهو

وكنت أطيعها متذمراً من فعلها ولكن محباً لها !

الفصل الرابع

١

كنت أمشي مسافات طويلة داخل المدينة وعلى الأرصفة وفي القرى.

لم تكن هذه النزهة حزينة كالتي قمت بها في أول أيام عودتي إلى نابلي، بل كنت أتمتع بتلذذ بمناظر المدينة والشاطىء والسماء والمياه، دون أن يعيبني الشعور بوحدتي المؤقتة، بل يجعني في نفسي ويوحد قوى قلبي وضميري، إذ أعلم أن عيون وأفكار صديقة تتبعني بين هذه الجموع أو الخلوات، وترقب عودتي قلوب ملأى بي.

لم أعد كالعصفور الذي يصرخ حول الأوكار الأجنبية، كما قالت العجوز، بل كالعصفور الذي يحاول طير مسافات بعيدة عن الغصن الذي يحمله، ولكن يعرف طريق العودة اليه

وتحولت مودتي لصديق المتغيب الى جرازيلا. بل كان في هذا الشعور الجديد شيء من الحدة والحرارة والعطف لم يكن موجودا في الشعور الذي كان يربطني به. إذ أعتقد أني حصلت على الأول بالتعود والظروف، ولكن الثاني خلق من نفسي وحصلت عليه بمحض اختياري

لم يكن هذا الشعور حبا . إذ لم يوجد فى الاضطراب والغيرة وشغف الهوى : بل كان راحة لطيفة للقلب، بدلا من هيام لطيف للنفس والحواس . ولم أفكر فى أن أحب أو أحب أكثر من هذا ، إذ كنت أجهل اذا كانت لى رفيقا أوصديقا أو أختا أو غير ذلك ، بل لم أعرف سوى أنى كنت سعيداً معها وأنها سعيده معى

لم أشته شيئاً اكثر من هذا أوغير هذا . فلم أكن فى السن الذى يحلل المرء فيه مايشعر به فى نفسه كى يعرف تعريفا السعادته بل كان يكفينى ان اكون هادئا ، متعلقا ، سعيداً ، دون ان اعرف بماذا اولماذا .

وكانت الحياة المشتركة والتفكير المتبادو يزايدان كل يوم رابطة الصداقة الطاهرة اللطيفة التى بيننا . هى طاهره فى خلاعتها بقدر سكونى فى خلوبالى

٢

مرت على ثلاثة اشهر وانا اسكن مع تلك العائله تحت سقف واحد ، اكار اكون جزءا من ضمير جراژيلا . فتعودت ان ترانى لا أنفصل عن قلبها ، وهى تكاد لا تدرك المحل الذى اشغله فيه . فلم تظهر معي الخوف او الاحتراس اوالحياء الذى يوجد فى

علاقات شاب بفتاة ، والذى يوجد الغرام فى الغالب من نفس الاحتياطات التى تؤخذ لأجله

لم تشك جرازيلا ، بل وكدت أنا كذلك ، فى أن هذا الظرف الطاهر الصبيانى ، الذى فتحته الآن بعض شموس أخرى جديدة ، فى كل رونق الرشد المبكر ، كان يجعل جمالها الساذج قوة عليها ، وإعجابا للكل ، وخطرا علىّ

ولم تتكلف لاخفائه أو تحليته فى عينى ، بل لم تفكر فيه كما لاتفكر الأخت فيما إذا كانت جميلة أو قبيحة فى عين أخيها ، بل لم يجعلها أبدا تغطى قدميها العاريتين ، حين تلبس أخويها فى الصباح على الشرفة فى الشمس ، أو حين تساعد جدتها فى إزالة أوراق الاشجار اليابسة من السطح ، فتدخل فى كل آن حجرتى المفتوحة الباب ، وتجلس على كرسى بجانب فراشى ، بكل براءة كما لو كانت بينو

وكنت أقضى أنا نفسى فى أيام المطر ساعات كاملة وحيدا معها فى الحجرة المجاورة ، حيث تنام هى وأخواها وتشتغل فى صناعة المرجان ، وأساعدها ونحن نتحادث ونلعب فى شغلها الذى كانت تعلمنى صناعته . وكنت أنجح فى قطع الاغصان الكبيرة

أحسن منها رغم مهارتها وذلك لقوتى . وكنا نصنع بذلك ضعف عملها المعتاد ، فتكسب فى يوم واحد أجر يومين

وبالعكس فى المساء حين تنام العائلة والاطفال ، كانت هى التى تمسى التلميذة وأنا المعلم ، فاعلمها القراءة بتهجيتها الحروف فى كتبى ، والكتابة بارشادى بيدها لنقش الحروف

كنت أحل بذلك محل ابن خالها إذ كان لا يستطيع الحضور كل يوم ، وسواء كان هذا الشاب المشوه القامة الاعرج ، لا يجعل ابنة عمته تميل اليه وتحترمه ، رغم طيبته وحلمه ، وجدية عاداته ، أو كانت تلهو كثيرا فى دروسه ، فان تقدمها معه كان أقل منه معى

وكنا نصرف نصف الزمن ونحن نضحك ونهزل ونقلد المعلم ، ولكن الشاب المسكين كان شديد الشغف بتلميذته ، وحييا معها حتى كان لا يجرأ على تأنيبها ، فيعمل كل شىء تريده هى ، كى لا يتقطب حاجباها ، ولا تأخذ شفتيها ثنية الغضب ، فتمر عليه الساعة المخصصة للمطالعة فى أغلب الاحيان وهو ينظف قطع المرجان ، أو وهو يلف الصوف على مغزل العجوز ، أو يصلح شبكة بيبو ، وكان كل شىء يعجبه ما دامت جرازيلا تبتسم له عند مغادرته المنزل بملاطفة ، وتقول له (آدِيُو) بصوت معناه « الى الملتقى ! »

٣

والأمر على عكس ذلك معى ، إذ يكون الدرس جديا، ولقد يستمر حتى يثقل النوم جفوننا ، ويرى من انحناء رأسها وامتداد عنقها ، وسكون هيئتها ووجهها الدال على الاصغاء ، أن الفتاة المسكينة تجتهد بكل قدرتها لاحراز النجاح

وتتكىء بمرفقها على كتفى لتقرأ فى الكتاب ، حيث يتتبع أصبعى الاسطر ويشير الى الكلمات التى تقرؤها ، وأمسك أصابعها فى يدى لارشد قلمها حين تكتب

واذا أخطأت كنت أعاتبها بشدة وغضب ، فلا تجيب ، ولا تحنق الا على نفسها ، وأراها أحيانا تكاد تبكى ، فألين صوتى وأشجعها على أن تعيد الكرة

وبالعكس اذا أجادت القراءة والكتابة ، كانت تبحث بنفسها عن مكافأتها بتصفيق ، فتلتفت نحوى ، وقد احمرت وجنتاها ، بسرور شامخ على جبينها وفى عينيها مفتخرة بالسرور الذى تسببه إلى أكثر من فوزها بنجاحها

وكنت أكافئها بمطالعة بعض صفحات من « پول وڤيرجينى » الذى كانت تفضله فوق كل شىء آخر ، أو أقرأ بعض أبيات جميلة من « التاس » ، حين يصف حياة الرعاة القروية الذين تسكن عندهم

(هيرميني) ، أو حين يذكر ياس عاشقين وآلامهما

فتُبكيها موسيقى هذه الابيات ، وتجعلها تحلم طويلا بعد انتهائى من مطالعتها

ليس للشعر صدى أعلى وأطول من قلب الشباب ، حين يتفتح فيه زهر الغرام ، فهو كالشعور السابق لكل الاهوية ، ويكون فيما بعد كالذكرى أو الحزن

فالشعر يبكي فى الامدين المتقابلين من الحياة : فى الشباب للأمل ، وفى الكبر للندم

٤

لم توجد هذه الملاطفات فى تلك الليالى الجميلة على ضوء المصباح ودفء الموقد الصغير تحت أقدامنا ، أفكارا أو مودة سوى هذه المودة الصبيانية . فكنا محميين ، أنا بخلو بال يكاد يكون جفاء ، وهى بطهارتها وسلامة قلبها

فنفترق هادئين كما التقينا ، وبعد برهة من هذه المحادثات الطويلة ، ننام تحت سقف واحد ، على بعد بضع خطوات من بعضنا ، كطفلين لعبا سويا طول المساء ، ويحلمان بشىء أعلى من ألعابهما البسيطة

كان هذا الشعور الهادىء يدوم سنين ، لولا حادث غير

كل شيء، وأظهر لنا طبيعة صداقتنا، التي كانت تكفينا كي نسعد لهذه الدرجة

٥

لم يفتر تشيكو (وهو اسم ابن خال جرازيلا) عن الحضور بمواظبة كل يوم لتمضية ليالي الشتاء مع عائلة البحار

ولو أن الفتاة لم تميزه بشيء، ورغم أنه كان ألعوبتها وموضع نكتها، فانه كان لطيفاً وحليما ومتواضعاً أمامها، حتى أنها كانت لا تجد مفراً من التأثر بمجاملاته، والابتسام له بعطف في بعض الاحيان . وكان قانعاً بذلك

كان من تلك الطبائع الضعيفة القلب ، التي تشعر بحرمان الطبيعة لها من الصفات التي تجعل المرء محبوباً ، فتكتفي بأن تحب بلا مقابل ، وتضحي نفسها كالعبيد الذين يتطوعون لخدمة أو سعادة المرأة التي يهبون لها قلوبهم

ليست هذه أنبل التعلقات ولكنها أرقها ، فيتحسر المرء عليهم ولكن يعجب بهم . إذ يَحِب لان يُحَب من طبائع الانسان ، ولكن يَحِب لان يحِب يكاد يكون من طبع الملائكة !

٦

تحت الملامح الكئيبة كان شيء ملائكي في حب الفتى المسكين،

بعيداً على أن يهان أو يغار من المراعاة التى كانت تخصنى بها جرازيلا أمامه ، فانه كان يحبنى لأنها تحبنى . فلا يطلب من حب جرازيلا المنزلة الاولى أو الوحيدة ، بل المحل الثانى أو الاخير : كان قانعاً بأقل شىء . فكان للتلطف لها والحصول على نظرة أو حركة عطف أو كلمة طيبة ، يذهب لاحضارى من آخر فرنسا الى التى تفضلنى عليه

أظن أنه كان يمقتنى لو سببت حزناً لابنة عمته ، فكان فخره بها بقدر حبه لها

وربما كان لبرود قلبه وأناته وعقله وتدبيره ، كما صنعناه ، ربه وعلته ، يحسب بطبيعته ان تأثيرى على أميال جرازيلا لن يكون أبدياً ، وأن حادثاً ما ، لا بد منه ، سوف يفصلنا . فأنا غريب ومن بلد بعيد ، وذى مركز وثروة لا تماثل بحاراً من پروشيدا ، وستنفصل يوماً من الايام المودة التى بينى وبينها كما تكونت فيما مضى ، وستبقى هى له حينئذ ، وحيدة مهجورة حزينة ، وهذا اليأس نفسه سيلين قلبها ويعطيه إياه ، جريحا ولكن كاملا

كان هذا الدور ، دور الصديق المسلى ، هو الدور الوحيد الذى كان يستطيع اتخاذه حيالها

ولكن كان لابيه رأي آخر فى المسألة

٧

كان الاب عالماً بتعلق ابنه بجرازيلا فكان يأتى لزيارتها من حين لآخر

ولتأثره بجمالها وعقلها ، واعجابه بتقدمها ومهارتها فى صناعتها ، وفى القراءة والكتابة ، واعتقاده ان العاهات الطبيعية لن تسمح لابنه بأن ينتظر عطفاً سوى عطف عائلته وموافقتها ، عزم على تزويجه بها ، ولما كانت ثروته عظيمة بالنسبة لعامل بسيط ، فانها تسمح له بأن يعتبر طلبه هذا نعمة لم يظن ان اندريا والعجوز وجرازيلا يرفضونها

وسواء كان ابنه عالما بغرضه ، أو أخفى الرجل فكرته كى يفاجئه بسعادته ، فانه عزم على التصريح بما فى نفسه

٨

تأخرت ليلة عيد الميلاد فوق عادتى . فلما جلست الى المائدة لاحظت جفاء واضطراباً لا شك انه مكتتم فى هيئة اندريا وزوجه العجوز ، ورأيت حين رفعت بنظرى الى جرازيلا أنها قد بكت

كان صفو وجهها شيئاً معتاداً ، حتى كانت هيئة الحزن غير العادية هذه كأنها تغطيه بحجاب كثيف ، ويخيل أن ظل افكارها وقلبها قد انتشر على ملامحها

جلست ، جامداً، صامتاً لا أجسر على سؤ آل القوم ولا مخاطبة جرازيلا، مخافة أن يظهر مجرد صوتي مافي قلبها من الشجون

لم تنظر الى بخلاف عادتها ، وكانت تحمل بيد تائهة قطع الخبز الى فمها، وتتظاهر بأنها تأكل ولكنها لا تستطيع، فتلقي الخبز تحت المائدة . وقبل أن ننتهي من عشائنا الصامت ، تعللت بالاطفال وقادتهما الى الحجرة وأغلقتها على نفسها معهما دون أن تودع لاجديها ولا اياى ،وتركتنا وحدنا

سألت الصياد والجدة بعد خروجها عن سبب اضطراب أفكارهما وحزن حفيدتهما . فقصا على أن خال جرازيلا حضر اثناء النهار الى المنزل، وطلب زواج حفيدتهما لابنه ، وأن هذه سعادة عظيمة وثروة كبيرة للعائلة ، وأن ابن خالها سيعطي ثروة، وجرازيلا الطيبة القلب ستأخذ معها الاطفال وتربيهما كأولادها ، وان آخر أيام الصياد وزوجه ستكون محفوظة من الفقر والحاجة ، وانهما قبلا هذا الزواج بكل ارتياح ، وعلى ذلك فاتحا جرازيلا بالامر ولكنها لم تجبهما لخجلها وتواضعها ، وان سكوتها ودموعها انما هي تأثير المفاجأة والانفعال، ولكن هذا سوف يزول، كما تذهب الذبابة من الوردة . وقد اتفق فيما بين الصياد وابن خال جرازيلا أن تكون الخطبة بعد عيد الميلاد

٩

انقطعت عن الاصغاء وهما لا يزالان يقصان على ما حدث لهما،

لم أقدر فى نفسى مقدار تعلق بجرازيلا حتى الان ، ولم أعرف كم كنت أحبها ، واذا كان ذلك مودة، أو صداقة طاهرة، أو حباً أو تعوداً، أو من كل تلك مجتمعة يتكون ميلى نحوها

ولكن فكرة رؤيتى كل هذه العلائق تتغير فجأة ، هذه العلائق اللطيفة ، علائق الحياة والقلب التى تكونت وتحكمت دون أن نشعر فيما بينى وبينها ، وتصورى انهم سيأخذونها منى فجأة ليعطوها لآخر ، وانها بعد كونها رفيقتى وأختى الآن ستصبح أجنبية عنى ، وأنها لن تكون هنا ، ولن أراها، فى كل حين ولن أسمع صوتها يناديني ، ولن أرى فى عينها هذا الشعاع الموجه الى دائماً، هذا الشعاع المضىء، شعاع العطف والوداد ، الذى كان يضىء قلبى ويذكرنى بوالدتى وأخواتى ، والفضاء والليل الحالك الذى تخيلته حولى فجأة ، هنا ، فى اليوم الثانى لذهابها مع زوجها إلى المنزل الآخر ، وهذه الغرفة التى لن تنام فيها ، وغرفتى التى لن تدخلها ، وهذه المائدة التى لن أراها جالسة اليها ، وهذه الشرفة التى لن أسمع منها وقع قدميها العاريتين أو صوتها ، فى الصباح ، عند استيقاظى ، وهذه الكنائس التى لن أذهب معها اليها فى أيام

الاحد ، وهذا الزورق الذى سيبقى فيه مقعدها خالياً ، والذى لن أتحادث فيه الا مع الريح والامواج ، والصور المتزاحمة لعاداتنا اللطيفة وحياتنا الماضية ، التى أخذت ترجع الى ذكراى دفعة واحدة ، والتى تختفى عنى فجأة وتتركنى فى هوة سحيقة من الوحدة والعدم : كل ذلك كان يشعرنى لاول مرة ، ماذا كانت صحبة هذه الفتاة إلى ، وأظهر لى جليا أن الشعور الذى يربطنى بها ، سواء كان حبا أو صداقة ، هو أقوى مما كنت أتصور ، وأن اللذة المجهولة التى كنت أجدها فى حياتى الشاردة فى ناپلى ، ليست البحر ، ولا الزورق ، ولا الحجرة الوضيعة فى المنزل ، ولا الصياد والعجوز ، ولا بيپو والاطفال ، بل هى كائن واحد . ولو اختفى هذا الكائن من المنزل ، اختفى كل شيء دفعة واحدة . ولو طُرِحت من حياتى الحالية لما تبقى شيء

فشعرت بذلك : تلك اللحظة المضطربة حتى ذلك الحين ، والتى لم أعترف بها لنفسى أبدا ، ضربتنى ضربة ارتعد لها قلبى ، وشعرت بشيء من أبدية الحب ، اذ شعر قلبى بانه انغمر فى حزن لانهاية له !

١٠

دخلت حجرتى صامتا ، وطرحت نفسى بملابسى على فراشى ،

ثم حاولت أن أقرأ ، أو أكتب ، أو أفكر ، أو أسلى نفسى بأى عمل فكرى قوى يستطيع التغلب على اضطرابى ، ولكن لم يجدنى كل ذلك نفعا ، كان الاضطراب الداخلى قويا حتى لم أستطع التفكير فى شيئين فى آن واحد ، ولم يستطع حتى انتهاك قواى أن يغرقنى فى النوم ، فلم تظهر صورة جرازيلا أمام عينى أكثر جمالا وسحرا منها فى تلك اللحظة ، وكنت استمتع بها كشىء يراه الانسان كل يوم ، ولا يشعر بلطفه الا حين يفقده . بل نفس جمالها لم يهمنى حتى الآن ، فكنت أخلط تأثيره على بتأثير الصداقة التى شعرت بها نحوها ، والتى كانت تظهرها لى ملامحها ، وكنت لا أعرف أن فى تعلقى بها شيئا من الاعجاب ، ولا شككت فى وجود شىء من الهوى فى عطفها

لم أدرك كل هذا من دورات قلبى الطويلة فى ليلة الأرق هذه ، بل كان كل شىء يختلط فى آلامى كما يختلط فى حواسى ، فكنت كرجل صرعته ضربة فجائية ، لا يعرف أين يتألم ، ولكنه يتألم فى كل موضع

تركت فراشى قبل أن تسمع أى حركة فى المنزل ، اذ كنت لا أدرى أى إلهام يدفعنى على الابتعاد مدة من الزمن ، كما لو كان وجودى فى مثل تلك اللحظة يكدر صفو قداسة هذه العائلة التى

كان يضطرب كذلك مصيرها أمام أجنبي

خرجت بعد أن أخبرت بيبوانى سأتغيب بضعة أيام، وسرت حيث حملتنى خطواتى الاولى . فررت على طول أرصفة نابلى وشاطىء رتشيناو پورتتشى وأسفل الڤيزوف. واستأجرت مرشدين عند (توري دل جريكو)، نمت على حجر عند باب صومعة (سان سلفاتور) على الحدود التى تنتهى إليها الطبيعة وتبتدىء منطقة النيران .

كان البركان ثائراً منذ زمن قليل، ويقذف عند كل هزة سحابا من الرماد والاحجار، كنا نسمع فى الليل تدحرجها حتى أخاديد اللافا أسفل الصومعة

رفض المرشدان السير معى أكثر من هذا، فصعدت وحدى بصعوبة آخر مخروط . وكانت قدماى ويداى تغوص فى رماد سميك حار ينهار تحت ثقلى، وكان البركان يضطرب ويقصف من آن لآخر، وتتساقط الحجارة المكلسة الملتهبه هنا وهنالك حولى وتنطفىء فى الرماد. لم يوقفنى شىء حتى وصلت حافة الكأس النهائية، وجلست

رأيت الشمس تشرق على الخليج وقرى مدينة نابلى الجميلة، ولكن لم أتأثر لهذا المنظر الذى يحضر السواح لمشاهدته، ويقطعون

لذلك آلاف الفراسخ ، فلم أبحث فى كل هذا العظم من الضوء والبحار والشواطىء والمبانى المنعكس عليها ضوء الشمس ، الا عن نقطة صغيرة بيضاء ، بين خضرة الاشجار الداكنة فى نهاية تل البوزيليب حيث تخيلت رؤية كوخ أندريا

عبثاً ينظر الانسان الى الفضاء ويمانفه ، فلا تتكون الطبيعة فى نظره إلا من نقطتين حساستين أو ثلاثة ، تنتمى اليها نفسه

اطرح من الحياة القلبَ الذى يحبك : ماذا يبقى ؟ كذلك الحال مع الطبيعة ، أمح منها المنظر والمنزل الذى تبحث عنه أفكارك ، أو يمتلئ بتذكاراتك ، فانها تصبح فراغاً هائلا لا ينتهى فيه النظر الى قرار أو راحة ، فهل يدهش المرء بعد ذلك من ان مناظر الخلقة الشائقة ، يشاهدها السياح بأعين مختلفة ؟ ذلك لان كل فرد يحمل نظره معه . وإن سحابة واحدة على النفس ، تحجب العالم وتغير من معالمه ، أكثر من سحابة على الافق ، فالمنظر فى الناظر ، وقد شعرت بصحة ذلك فى تلك اللحظة

١١

نظرت كل شىء ولكن لم أر شيئاً !

عبثاً نزلت كالمجنون ، متعلقاً باسنان اللافا التى تبردت ، الى

اعماق كأس البركان ، وعبثاً تجاوزت هوات سحيقة يتصاعد منها الدخان واللهب الزاحف، الذى كنت اختنق منه واحترق وعبثا نظرت الى تلك السطوح الشاسعة من الكبريت والملح المتبلور،التى تشبه الثلاجات الملونة بهذا التنفس النارى : جلست لاأشعر باعجاب أو خطر ،فكانت نفسى فى غير هذا المكان،وعبثا حاولت نداءها

عدت الى الصومعة عندالمساء ، وصرفت المرشدين ،رجعت عن طريق كروم پومپي،حيث قضيت يوما كاملا أسير بين طرقات المدينة الخالية ، التى ابتلعتها الارض وأحرقها البركان

وكان هذا القبر الذى انفتح بعد ألفى سنة، معرضاً للشمس طرقه وآثاره وفنونه،لايؤثر علىّ كما لم يؤثر القيزوف،فروح كل هذا الرماد قد قضى عليها ريح الله من قرون عديد ، فلم تعد تحادث قلبى

كنت أطأ بقدمى تراباً كان أحياءاً ، فى طرقات ما قد كانت مدينتهم، بعدم اكتراث كما لو كان ركاماً من الصدف الفارغ دحرجته الامواج الى تلك البقعة . فالدهر بحر عظيم يفيض كالبحر الثانى، يفيض ببقاياتا . فلا يبكى المرء كل شىء . لكل رجل أحزانه ، ولكل قرن شفقته ، وكفى

تركت بومبي، واخترقت جبال كستلامار وسورنتا المغطاة بالغابات، وعشت فيها بضعة أيام أذهب من قرية الى آخر سائلا رعاة المعز عن المناظر المشهورة في جبالهم. وكانوا يظنون أني مصور يدرس المناظر، لاني كنت أكتب من حين لآخر بعض ملحوظات على كراسة صغيرة للتصوير تركها لي صديق

لم أكن سوى نفس شاردة، تنتقل من هنا وهنالك في القرى لقضاء الايام، فكان كل شيء ينقصني، بل كنت أنقص نفسي

لم أستطع الاستمرار أكثر من ذلك. فبعد انقضاء أيام عيد الميلاد، وانقضى ذلك اليوم الاول من العام الجديد، الذي جعله الناس عيداً، ليخدعوا الدهر ويلينوه بأفراح وأكاليل، كما يلين الضيف صاحب الدار الشديد، أسرعت بالعودة الى نابلي

دخلتها ليلا وأنا متردد بين التسرع لرؤية جرازيلا والخوف من أن أخبر أني لن أراها بعد الآن، ووقفت مراراً، وجلست على جوانب الزوارق وأنا مقترب من المارچلينا

قابلت بيينو على بضع خطوات من المنزل، فصرخ فرحاً وعانقني كأخي الصغير، ثم قادني الى الزورق وقص علي ما حدث اثناء غيابي

تغير كل شيء في المنزل، إذ أن جرازيلا لم تنقطع عن البكاء طول مدة غيابي. ولم تجلس الى المائدة لتناول الطعام ولم تشتغل في

صناعة المرجان ، وكانت تقضى كل أيامها موصدة بابها دون أن تجيب اذا نوديت ، وكل لياليها تتمشى على الشرفة . وكان الجيران يقولون أنها جنت أو عشقت ، ولكن بيينو كان يعلم أن هذا كذب

وكان الغلام يقول أن كل الضرر حادث من الحاحهم لتزويجها لابن خالها وهى لا تريد ذلك ، وقد رأى بيينو كل شىء وسمع كل شىء . وكان خالها يحضر كل يوم ليعرف رد الجدوالجدة ، وكان هذان لا يفتران يعذبان جرازيلا لترضى ، ولكنها لا تريد أن تسمع أى شىء فى الامر وتقول انها تفضل الهرب الى جنيفا ، وهذا التعبير يعتبر عند كاثوليكى نابلى مقابلا للتعبير : انى افضل على ذلك الجحود ، وهو تهديد أعظم من الانتحار ، هو انتحار النفس الابدى

يئس اندريا وزوجه اللذان يعبدان جرازيلا من عنادها وضياع آمالهما باغنائها ، وكانا يستحلفانها بشعورهما البيضاء وشيخوختهما وفقرهما ومستقبل الاطفال ، فتلين جرازيلا اذ ذاك وتحسن مقابلة ابن خالها قليلا ، اذ انه كان يحضر فى المساء من حين لآخر ، ويجلس بتذلل خارج باب غرفتها يلاعب الطفلين . وكان يحييها ويودعها خلال الباب ، ولكنها قلما تجيبه بكلمة واحدة ، فكان يذهب حزينا ولكن صابراً ، ويعود فى اليوم الثانى كما هو .

ثم قال بيينو :

— إن اختى مخطئة لان تشيكو يحبها كثيراً وهو طيب القلب فتكون معه سعيدة. وأخيراً فى هذه الليلة اقنعت بتوسلات جدى وجدتى ودموع تشيكو ، ففتحت جزءا ضيقاً من الباب ومدت إليه يدها ، فألبس أصبعها خاتماً ، ووعدت بانها ستقبل الخطبة غداً ، ولكن من يدرى إذا لم يظهر لها هوى جديد باكراً ؟ فقد كانت طيبة فرحة ! يا إلهى ! كم تغيرت ! انك لن تعرفها أبداً حين تراها ! »

١٢

نام بيبنو فى الزورق ودخلت المنزل بعد ان علمت منه كل شىء . وكان أندريا والعجوز وحيدين على السطح ، فقابلانى بصداقة ، واثقلانى بالعتاب اللطيف على تغيبى هذا الزمن الطويل . ثم قصا على آلامهما وآمالهما الخاصة بجرازيلا . وقال لى أندريا :

— لو كنت أنت هنا ، أنت الذى تحبك كثيراً ولا ترفض لك شيئاً أبداً لسعادتنا ! كم نحن مسرورون لرجوعك ! غداً خطبتها وستحضرها أنت معنا ، إذ وجودك يبشرنا بالسعادة ! »

شعرت عند تلك الكلمات بهزة مرت بجسمى ، ألهمنى شىء بأنى سأكون سبباً فى تعاستهم . وكنت اتقد وأرتعد لرؤية جرازيلا ، فتكلفت الكلام بصوت عال ، والمرور امام باب

حجرتها ، كشخص لا يريد النداء ولكن يريد ان يسمع. ولكنها بقيت صماء خرساء ولم تظهر . فدخلت حجرتى ونمت. أخيراً استولى على ذهنى شيء من السكون ، يحدثه دائماً فى النفس المضطربة ، انتهاء الشك والتأكد من شيء ما، حتى ولو الشقاء. سقطت على فراشى كثقل ميت بلا حراك ، وألقانى ملل الافكار والاعضاء فى أحلام مضطربة تلاها سكون النوم

١٣

استيقظت من نومى مرتين أو ثلاثة أثناء الليل؛ وكانت ليلة من ليالى الشتاء النادرة ، ولكنها الاكثر رهباً فى الاقاليم الحارة وعلى الساحل منها فى غيرها . وكان البرق يسطع بلا انقطاع خلال شقوق النافذة، كبريق عين من النار على جدران حجرتى، والريح تعوى بقوة كالكلاب الضارية ، ويردد جميع الساحل ضربات البحر الهائج على شاطىء المارچلينا، كما لو أمطرته السماء كتلا من الصخر

وكان باب حجرتى يضطرب ويرتعد لهبوب الريح . ولقد تخليت أنه فتح مرتين أو ثلاثة واغلق من نفسه ، وانى سمعت ضراخاً مختنقاً وزفرات بشرية بين صفير الريح وأنين الزوبعة .

وتهيأ لى مرة بانى سمعت صدى كلمات ولفظ اسمى من صوت يائس ينادى للمعونه : فاستويت جالساً ، ولكن لم أسمع شيئاً ، فظننت ان الزوبعة والحمى والآلام تغرقنى فى هواجسها وعدت الى النوم

هدأت العاصفة عند الصباح ، وتبعتها الشمس رائقة الجمال. أيقظتنى أنات حقيقية وصرخات يأس الصياد الشيخ والعجوز، اللذين كانا ينتحبان امام باب حجرة جرازيلا

فرت الفتاة المسكينة أثناء الليل، وقد أيقظت الطفلين وقبلتهما وأشارت عليهما بالسكوت ، وتركت جميع ملابسها الجميلة وأقراطها وعقودها وما تمتلكه من النقود

وكان الصياد ماسكا فى يده قطعة من الورق مبللة بنقط الماء، وجدها على فراش جرازيلا ،وكانت عليها خمسة أو ستة أسطر، فتوسل الى ان اقرأها ، وقلبه يكاد ينفطر أسى وكمدا .

كانت لا تحتوى الا هذه الكلمات ، كتبتها يد ترتعد فى نوبة من الحمى ، وجدت صعوبة فى قراءتها :

« قد وعدت كثيراً ..... هنالك صوت يقول لى بأن هذا اكثر مما أطيق .....أقبل أقدامكم .....سامحونى... أفضل أن اكون راهبة ..... عزوا تشيكو والسيد .....

سادعو الله له وللاطفال ..... أعطوا لهم كل ما أمتلك وردوا الخاتم الى تشيكيو ..... »

وعند قراءة هذه الاسطر أجهشت العائلة بالبكاء ثانية ، واخذ الطفلان العاريان ، اذ أدركا ان اختهما ذهبت الى الابد ، يخلطان صراخهما بأنات العجوزين ، ويجريان فى المنزل يناديان جرازيلا ....

١٤

سقطت الورقة من يدى ، ولما أردت التقاطها رأيت على الأرض تحت باب حجرتى زهرة رمان حمراء كنت أعجبت بها يوم الأحد الماضى فى شعر الفتاة ، وبجانبها الصورة المقدسة التى كانت تحملها دائما فى صدرها والتى علقتها على سجف فراشى يوم مرضت

لم أشك بعد ذلك أن بابى فتح وأوصد حقيقة أثناء الليل ، وأن الكلمات والزفرات المختنقة التى تخيلت سماعها ، وظننتها أنين الريح ، لم تكن إلا وداع الفتاة المسكينة وزفراتها

وكان الجزء الجاف من الشرفة خارج بابى بين آثار المطر الذى بلل باقى الشرفة ، دليل على أن الفتاة جلست هنا أثناء العاصفة وأنها

قضت آخر ساعاتها تشكى وتنتحب مطروحة أو جاثية على ذلك الحجر . ثم أخذت الزهرة والصورة وخبأتهما فى صدرى

تأثر القوم وسط يأسهم إذ رأونى أبكى مثلهم ، وفعلت ما استطعت لأعزيهم فى مصابهم

اتفقوا أنهم لن يكلموا الفتاة عن ابن خالها إذا وجدت . وكان هو نفسه أول من ضحى نفسه لسلام المنزل وعودة ابنة عمته . وكان يلوح على وجهه ولو أنه كان يائساً ، أنه مسرور لذكر اسمه فى كتابها بعطف ، وأنه وجد شيئاً من التعزية فى نفس الوداع الذى سبب يأسه . فكان يقول لنفسه :

— « لقد تذكرتنى رغم ذلك » ويجفف دموعه

اتفقنا فى الحال أن لا نستريح لحظة واحدة قبل أن نجد أثر الهاربة . فخرج الصياد وابن خال جرازيلا فى الحال للاستفهام فى أديرة النساء الكثيرة فى المدينة ، وأسرعت الجدة وبيبنوا إلى جميع صديقات جرازيلا اللاتى شكّا أن تكون قد أسرت اليهن بأفكارها وعزمها على الهرب ، وأما أنا فلكونى غريب تعهدت بزيارة الارصفة ومراسى نابلى وأبواب المدينة ، وسؤال الحراس وربانى السفن والبحارة ، والاستفهام عما إذا كان أحدهم أبصر فتاة بروشيدية خرجت من المدينة أو ركبت زورقا

مضى الصباح فى أبحاث لم تجدنا نفعاً ، فرجعنا جميعاً صامتين محزونين لنقص على بعضنا بعض أبحاثنا و نتشاور فى الامر . ولم يستطع أحدنا سوى الطفلين أ كل شيء من الطعام

جلس أندريا والعجوز يائسين على باب حجرة جرازيلا .

ثم خرج بينو وابن خاله يتجولان فى الطرق بلا أمل ، ويدخلان الكنائس التى تفتح ليلا فى ناپلى للدعاء والابتهال

١٥

خرجت وحيداً بعدهما وسرت حزيناً بلا قصد فى الطريق المؤدى الى مغارة البوزيليب ، فاجتزتها وسرت الى شاطىء البحر الذى يحيط بجزيرة نيسيدا الصغيرة

تحولت عيناى من شاطىء البحر الى پروشيدا التى ترى من هنالك بيضاء كظهر سلحفاة على زرقة الامواج ، فتحول فكرى بطبيعة الحال الى هذه الجزيرة والى أيام الاعياد التى قضيتها فيها مع جرازيلا

خطر فى ذهنى الهام فجأئى . تذكرت ان للفتاة فى پروشيدا صديقة من سنها وهى ابنة رجل فقير يسكن أحد الاكواخ المجاورة وان هذه الفتاة ترتدى لباساً خاصاً مخالفاً لما تلبسه رفيقاتها . وقد

سألت جرازيلا يوماً عن سبب اختلاف اللباس هذا ، فأجابتنى بانها راهبة رغم كونها تسكن حرة مع أبويها ، وتلك حالة بين الدير ومعيشة العائلة . ثم ارشدتنى الى كنيسة ديرها الذى يوجد كثير مثله فى الجزيرة وكذلك فى إيشيا وفى قرى ضواحى نابلى ، فظننت أن جرازيلا راغبة فى الترهب قد تذهب الى صديقتها هذه وتسألها ان تدخلها فى ديرها

لم أمهل نفسى وقتاً للتفكير بل أسرعت فى المشى على طريق پوزول وهى أقرب مدينة من پروشيدا ، وحيث توجد زوارق للتعدية .

وصلت پوزول فى أقل من ساعة من الزمن وأسرعت إلى الميناء ودفعت ضعف الاجر العادى لمجذفين كى أحملهما على نقلى الى پروشيدا رغم هياج البحر والليل الدامس المخيم . فأنزلا مركبهما الى البحر وأخذت أجذف معهما

اجتزنا رأس (ميزين) بصعوبة ، وبعد ساعتين نزلت الجزيرة ، وصعدت وحيدا ، تعباً ، مرتعداً ، بين الظلام الحالك ، وريح الشتاء الشديدة ، درجات السلم المؤدى الى كوخ أندريا .

١٦

قلت فى نفسى :

— اذا كانت جرازيلا فى الجزيرة ، فلا بد من أن تكون أتت هنا مدفوعة بالالهام الذى يحمل العصفور الى وكره والطفل الى بيت أبيه ، واذا لم تكن بالمنزل فلا بد من بعض آثار تدل على مجيئها هنا ، وقد تدنى هذه الآثار على مقرها الحالى . أما اذا لم توجد هى ولا آثار لها ، فقد ضاع كل شىء ، اذ أبواب قبر حى تكون قد أغلقت على شبابها الى الابد . . . »

صعدت آخر درجة مضطربا بهذا الشك المروع ، وكنت أعلم الشق الذى خبأت فيه العجوز المفتاح حين تركنا المنزل فازحت الحشائش ، ومددت يدى باحثاً باصابعى عنه ، وهى ترتجف مخافة ان تلامس الحديد البارد فلا يبقى عندى أمل بعد ذلك .....

لم أجد المفتاح . فصحت صيحة ضعيفة لشدة الفرح ودخلت الحديقة الصغيرة بخطوات خفيفة

كان الباب موصداً وكذلك النوافذ ويخرج من شقوق أحدها ضوء ضئيل يرتجف على أوراق شجرة التين ، دالا على ان فى المسكن مصباحاً مضاء

من الذى يستطيع ايجاد المفتاح ، وفتح الباب ، وايقاد المصباح اذا لم يكن أبن المنزل ؟

لم أشك أن جرازيلا هنا ، على بضع خطوات منى . فجثيت على ركبتى على آخر درجة من السلم شكراً للملاك الذى قادنى اليها . . .

١٧

لم أسمع أى حركة فى المنزل . فالصقت اذنى الى الباب فتخيل لى سماع تنفس ضعيف وزفرات فى آخر الغرفة الثانية . فهززت الباب هزا خفيفاً كما لو كان يرتجف من الريح ، كى أجذب نظر جرازيلا شيئاً فشيئاً ، وكى لا يقتلها سماع صوت بشرى فجأة وهو يناديها

وقف التنفس ، فناديت جرازيلا بصوت ضعيف وبأهدأ وأشفق لهجة وجدتها فى قلبى فاجابتنى صرخة فى آخر المنزل

ناديت ثانية أستحلفها ان تفتح لصديقها ، لاخيها أتى وحيداً فى الليل ، خلال الزوبعة ، يقوده ملاك طاهر ، أتى ليبحث عنها ويجدها ، وينتشلها من اليأس ، ويأتيها بصفح عائلتها وصفحه ، أتى ليعيدها الى واجبها وسعادتها وجدتها المسكينة وأخويها العزيزين

فصاحت خفية :

— يا إلهى ! هذا هو ! هذا اسمى ! هذا صوته !

فناديتها بصوت أرق :

— « جرازيلينا ! » ناديتها بهذا الاسم الرقيق الذى كنت أناديها به حين نضحك معا

فصرخت :

— آه ! نعم هو ! لست مخطئة ! يا إلهى ! هذا هو !

سمعتها تنهض من على الأوراق اليابسة التى يسمع حفيفها عند كل حركة تأتيها ، وخطت خطوة كي تفتح لى ، ولكنها سقطت على الأرض من الضعف أو الانفعال ، غير قادرة أن تتقدم أكثر من هذا

١٨

لم أتردد ، بل دفعت الباب بكل قوى استعجالى وقلقى ، فنزع القفل واندفعت داخل المنزل

كان المصباح الصغير الذى أوقدته جرازيلا أمام تمثال العذراء ، يضىء الغرفة بضوء ضعيف . فأسرعت الى الحجرة الثانية حيث سمعت صوتها وسقوطها ، وحيث ظننتها مغمى عليها لم تكن كذلك ، بل خانهاضعفها فى محاولتهاالمشى ، فسقطت

على الحشائش اليابسة التى تنام عليها ثانية ، وضمت يديها ناظرة إلىّ . وعينيها اللتين تفتحهما الدهشة تبرقان من الحمى وقد أضناها العشق ، وتلمعان ثابتتين كنجمين تسقط أشعتهما من السماء وينظران إلىّ

ويسقط رأسها وهى تحاول رفعه على الأوراق من ضعفها ، مائلا الى الوراء كما لو كان العنق مكسورا

كانت صفراء اللون كالنزع ، سوى خديها الملونين بلون وردى شديد . وكانت تغطى بشرتها الجميلة بقع الدموع قد التصق بها التراب ، ويختلط ثوبها الاسود بلون الاوراق المغطية للارض والتى تضطجع عليها . وكانت أرجلها العارية البيضاء كالمرمر ، خارجة عن الحشائش وموضوعة على الحجر ، وتهز جسمها رعشات تصطك لها أسنانها . وكان المنديل الأحمر الذى يحيط عادة فشعرها الطويل الاسود ، محلول ويغطى رأسها حتى عينيها . فرأيت انها استعملته فى إخفاء دموعها ووجهها فى الظلام ، وانها لم ترفعه الا حين سمعت صوتى ، وساعة قيامها لتفتح الباب

١٩

جثيت بجانب فراشها وأخذت يديها الباردتين بين يدى

وحملتهما الى شفتى لأدفئهما بتنفسى ، فسقطت عليهما دموع عينى . وفهمت من ضغط أصابعها أنها شعرت بهذا القطر القلبى ، وأنها تشكرنى عليه

خلعت معطفى وغطيت به قدميها ولففتهما فى صوفه . فتركتنى أفعل ما أريد ، ناظرة إلىّ بعينيها ، بهيئة نشوة سعيدة ولكن دون أن تستطيع مساعدة نفسها بحركة ، كما يترك الطفل نفسه فى المهد يلف ويقلب . ثم أوقدت نارا فى الموقد بالحجرة الاولى لتدفئة الهواء ، وعدت وجلست بجوار فراشها

فقالت لى ، تتكلم بصوت خافت لطيف ، متساوى النغمات ومتشابهها ، كما لو كان صدرها قد فقد كل لهجة واهتزاز ولم يحفظ إلا نغمة واحدة فى صوتها :

— كم أنا مستريحة ! لقد حاولت عبثا أن أخفيه عن نفسى ، وعبثا أردت أن أخفيه عنك دائما .

يمكننى أن أموت الآن ، ولكن لا أستطيع أن أحب أحدا غيرك .

هم أرادوا خطبتى لرجل . . . أنت الذى خطبته نفسى ! ولن أعطى نفسى لآخر على الارض ، لانى أعطيت لك نفسى سرا ؛ أنت على الارض أو الله فى السماء ! هذا هو النذر الذى أخذته

على نفسى يوم علمت أنى مريضة بك :

إنى عالمة حق العلم ، أنى لست سوى فتاة فقيرة ، غير أهل حتى للمس قدميك تصورا : لذلك ، لم أطلب منك أبدا أن تحبنى ولن أسألك أبدا اذا كنت تحبنى ولكننى أنا : أنا أحبك ! أحبك ! أحبك ! »

وتخيل لى أنها تجمع فى هذه الكلمات الثلاث ، كل غرام نفسها وقلبها

— والآن ، احتقرنى ! أسخر منى ! طأنى بقدميك ! إهزأ بى اذا شئت ، كمجنونة تحلم بأنها ملكة فى أسمالها البالية ! عرضنى لسخرية العالم أجمع !

نعم ، أقول لهم أنا نفسى :

« نعم أحبه ! ولو كنتن مكانى لفعلتن مثلى : وهلكتن أو أحببتنه ! »

٢٠

خفضت بصرى ولم أجرأ على رفعه إليها ، مخافة أن يقول لها أكثر أو أقل مقابل كل هذا الثمل . ومع ذلك ، عند تلك الكلمات ، رفعت رأسى الموضوع على يديها ، وتمتمت بعض كلمات ، فوضعت أصبعها على شفتى وقالت :

— دعنى أقول كل شيء . الآن أنا مسرورة ، وليس عندك شك ، فقد كشف الله ارادته ، اصغى إلى :

«بالأمس ، حين هربت من المنزل ، بعد أن قضيت الليل ابكى وأصارع قلبى على باب حجرتك ، وحين وصلت هنا خلال العاصفة ، جئت معتقدة انى لن أراك أبداً ، بل جئت كميت يمشى بقدميه الى قبره ، إذ كنت أصبح راهبة غدا صباحاً

ولما وصلت الجزيرة فى المساء ، قرعت باب الدير ولكن متأخرة حيث كانوا قد أغلقوا الباب ، فرفضوا قبولى

فجئت هنا لقضاء الليل ، وتقبيل جدران منزل أبى ، قبل ان ادخل بيت الله ، قبر قلبى . اذ قد كتبت لصديقتى بان تحضر وتأخذنى غداً

أخذت المفتاح وأوقدت المصباح امام العذراء ، ثم جثيت على ركبتى ونذرت نذراً ، نذراً أخيراً ، نذر الآمل حتى اليأس : اذ ستعرف لو أحببت يوماً فى حياتك ، أنه يبقى دائماً ضوء نار أخير فى قرار النفس ، حتى حين يظن أن كل شيء انطفأ فيها

قلت للعذراء :

« أيتها الحامية القديسة ، أرينى اشارة تدل على هدايتى ، لأتأكد أن الحب لا يخدعنى ، وأننى أهب حقيقة لله حياة يجب أن لا تكون لسواه :

« هذه آخر ليالىَّ بين الاحياء قد ابتدأت ، ولا يعرف أحد أين أقضيها ، وربما لا يحضرون لأخذى من هنا إلا حين لا أكون موجودة

« فاذا حضرت صديقتى التى أرسلت فى إخبارها ، حضرت أولا ، كانت تلك إشارة لى بان اتمم غرضى ، فاتبعها الى الدير ، الى الابد !

« ولكن اذا جاء هو قبلها ! ... هو ! حضر بارشاد ملائكى ليجدنى ويحجزنى على حافة حياتى الثانية ! ... آه ان كان ذلك ، حينئذ فانك ترفضين قبولى ، وانه يجب ان اعود معه لاحبه باقى حياتى ! » ثم اضفت بعد ذلك :

« اجعليه يحضر هو أولا ! افعلى هذه المعجزة اذا كانت قضاءك وقضاء الله ! واقدم لك قربانا لذلك ! القربان الوحيد الذى أستطيع تقديمه ، أنا التى لا أملك شيئاً

« ها هو شعرى ، شعرى الطويل المسكين ، الذى يحبه ، والذى حلله مراراً وهو يضحك كي يراه متطايراً فى الهواء على كتفى .. خذيه ... أقدمه لك ... سأقصه بنفسى كي أريك أنى لا أحفظ شيئاً لنفسى ، وأن يشعر رأسى سلفاً بالمقص الذى سيقطعه غداً ، حين أفصل عن العالم ! » ثم أزاحت عند هذه الكلمات بيدها

اليسرى المنديل الحريرى الذى كان يغطى رأسها ، وأخذت بيدها الاخرى شعرها الطويل المقصوص ، وكان بجانبها على الحشائش اليابسة ، وأرتنى اياه وهى تنشره . ثم استمرت فى الحديث ، وقد أشرق وجهها بالسرور

— فعلت العذراء المعجزة ! أرسلتك :

سأذهب حيث تريد ! شعرى لها وحياتى لك !

أسرعت الى ضفائرها المقصوصة ، ضفائر شعرها الاسود الجميل ، فبقيت فى يدى كغصن ذابل فصل عن شجرته

جعلت أقبلها ، وأضمها الى صدرى ، وأسقيها بدموعى ، كما لو كانت جزءاً من جسمها أدفنه ميتاً فى الارض

ثم نظرت اليها ، فرأيت رأسها الجميل الذى كانت ترفعه عارياً من الشعر ، وكأنه محلى ، وقد زادته تضحيتها جمالا ، ووجهها يسطع بشراً وحبا وسط بقايا أجزاء الشعر المختلفة الطول ، وكأنها مزقته لا قصته

خيل لى أنها تمثال الشباب قد عبثت به يد الدهر ، ولكن تشويهه يزيد فى جماله ولطفه ، باضافة الشفقة الى الاعجاب

وقد حمل تشويهها لنفسها هذا ، وانتحار جمالها الحبى ، حمل الى قلبى ضربة هز صداها كل نفسى ، ورمانى الى قدميها

واضعاً جبهتي إلى الارض

شعرت إذ ذاك ما هو الحب ، ظننت هذا الشعور حباً ! :

٢١

واحسرتاه ! لم يكن هذا الشعور حباً كاملا ، بل كان ظله في نفسي ، ولكنني كنت لا أزال شاباً ساذجاً حتى أخدع نفسي ، فتصورت أني أعبدها ، كما تستحق مثل تلك البراءة والطهارة والجمال والحب أن يعبدها عاشق

قلت لها عبارتي بهذه اللهجة الصادقة التي يوجدها الانفعال ، وبهذا الشغف الشديد الذي توجده الوحدة والليل واليأس والدموع ، فصدقت ؛ وكانت في حاجة الى التصديق كي تحيا ، ولأن في قلبها من الحب ما يكفي ألف قلب آخر !

هكذا مضى الليل كله في المحادثة المستأمنة الساذجة الطاهرة ، لكائنين يكشفان لبعضهما عن حنانهما ، ويودان أن يكون الليل والسكون أبديين ، فلا يأتي شيء أجنبي عنهما ، ويتدخل بين فاهيهما وقلبيهما . وكان إيمانها ، وتحفظي الحي ، وحنان نفسينا ، يبعد عنا كل خطر خارجي . وكان حجاب دموعنا يغطينا ، وليس شيء أبعد من الملاذ أكثر من الحنان . وإن التغرير بمثل هذه الألفة تدنيس لنفسين .

كنت ممسكا بيديها بين يدى فشعرت بعودتها الى الحياة .

ثم أحضرت لها ماء بارداً فى يدى لتشرب وتغسل وجهها ، وأسعرت النار ببعض الغصون اليابسة ثم عدت فجلست على الحجر بجانب حزمة الآس التى تتكئ عليها برأسها، كى لا أسمع ، وأسمع ثانية، أسرار حبها الجميلة :

كيف نشأ فى قلبها من غير أن تشعر ، نشأ تحت مظاهر صداقة أخوية طاهرة رقيقة ، وكيف تخوفت فى أول الأمر ، ثم عادت فاطمأنت ، وبأى علامة أدركت أنها تحبنى ، وكم علامة تفضيل سرية اعطتنى دون أن أنتبه لها ، وفى أى يوم ظنت أنها خدعت نفسها ، وفى أى يوم آخر ظنت أنها رأتنى أبادلها حبها ، والساعات ، والحركات والابتسامات والكلمات التى زلت واستدركت واعترافات وجهينا وسحابهما فى تلك الأشهر الستة

وقد حفظت ذاكرتها كل شىء ، وتذكرها بكل شىء ، مثل حشائش جبال الجنوب التى أشعل فيها الهواء ناراً ، فتحفظ أثر الحريق فى جميع الأجزاء التى مر اللهب بها

٢٢

كانت تضيف إلى هذه المفاتحات ، تفاؤلات الحب العجيبة التى تكسو أتفه الحوادث قدرا ومعنى

كذلك كانت ترفع أمامى أحجبة روحها واحداً واحداً، وتظهر لى نفسها، كما تظهرها الله فى تجرد طهارتها وحداثتها وتهاونها.

ولا يكون للنفس مثل تلك الدقائق إلا مرة واحدة، تصب فيها نفسها كاملة فى نفس ثانية، بهذا الخرير الذى لا ينقطع، الخارج من الشفتين اللتين لا تستطيعان كفاية انسجامه المغرم، فتنتهيان باخراج أصوات متقطعة مختلفة، كقبلات طفل أخذ الكرى يجفونه

لم أمل أنا نفسى السماع، والأنين، والاضطراب بالتناوب، ولو أن قلبى الخفيف، الحديث الشاب، لم يكن على درجة من التجربة والنمو بحيث ينتج من نفسه مثل هذا الطرب الحار الإلهى، هذا الطرب الذى كان يسكرنى بتقطره فى نفسى بشعور جديد لطيف، حتى ظننت عند شعورى به، أننى أكابده أنا أيضاً

يا له من خطأ مبين: كنت المرآة وكانت النار:

ظننت أنى أحدثها بينما أنا أعكسها فقط

ومهما يكن: فان هذا التشعع المنعكس من قلب لآخر لكأنه من الاثنين معاً، فكان يحيطنا بجو شعور واحد

٢٣

كذلك مرت تلك الليلة الطويلة الباردة. ولم يكن طول تلك

الليلة لها ولى ، سوى طول تَنَهُّدَةٍ تُشعِرُ بالحب .

نقيل لنا حين أتى النهار أنه قطع هذه الكلمات التى ما كادت تبتدىء .

كانت الشمس قد صعدت كثيراً فى السماء حين نفذت أشعتها من شقوق النافذة . فرأيت وقد فتحت الباب جميع عائلة الصياد تصعد السلم عدواً .

كانت الفتاة الراهبة صديقة جرازيلا التى أرسلت اليها بالأمس ، وأسرت لها بعزمها الدخول إلى الدير فى الغد، شكت فى وجود يأس وحزن فى قلب جرازيلا ، فأرسلت أثناء الليل أحد إخوتها إلى نابلى ليخبر جديها بعزمها .

فحضروا مسرعين ، وقد علموا مقر حفيدتهم ، فرحين تائبين، كى يوقفونها على حافة يأسها ، وليعودوا بها معهم طليقة مسامحة .

جثت العجوز بجانب الفراش ،وقدمت بيديها الطفلين اللذين أتت بها لإلانتها ، محتمية بهما ضد عتاب حفيدتها ،فارتمى الطفلان صائحين باكيين بين ذراعى أختهما .

وقامت جرازيلا لتقبل جدتها ، فسقط المنديل الذى كان يغطى رأسها ، فظهر مجرداً من الشعر ، فارتعدت فرائصهم حين

رأوا تدنيس جمالها هذا اذ أدركوا معناه .

علا صوت البكاء فى المنزل ، ولكن الراهبة التى دخلت إذ ذاك ، هدأت روعهم وعزتهم ، ثم أخذت ضفائر جرازيلا ولمست بها تمثال العذراء ثم طوتها فى منديل حريرى أبيض ووضعتها فى حجر الجدة وقالت لها :

— احفظيها ، وأريها إياها من أن الآخر ، فى سعادتها أو شقائها ، وذكريها حين تصبح خاضعة لمن تحبه ، بان أبكار قلبها يجب أن تكون لله دائماً كما ان له أبكار جمالها فى هذه الضفائر . »

٢٤

عدنا فى المساء جميعاً إلى نابلى ، وكان اجتهادى فى إيجاد جرازيلا ونجاتها فى تلك الحادثة قد ضاعف محبة الجدين لى ، ولم يشك أحد منهما فى اهتمامى بها وتعلقها بى ، إذ كانا يعللان كل اشمئزازها إلى عاهات تشيكو ، ويأملان التغلب عليه بالبرهان والزمن فوعدا جرازيلا بعدم الإلحاح عليها بالزواج ، وتوسل تشيكو نفسه لأبيه بأن لا يتكلم فى الامر ، وكان يطلب بتذلله ولهجته ونظراته صفحها عنه لكونه سبب شجنها ، ثم ساد السكون فى المنزل ثانية

٢٥

لم يبق شىء ليكدر صفاء وجه جرازيلا أو سعادتها ، اللهم إلا

تذكرها أن هـذه السعادة ستنتهى عاجلا أوآجلا برجوعى إلى بلدى

فإذا ذكر اسم فرنسا ، اصفرت الفتاة المسكينة كأنها رأت شبح الموت

دخلت حجرتى يوما، فوجدت جميع ملابسى الحضرية ممزقة ومبعثرة على الأرض. فجئت جرازيلا أمامى وقالت وقد رفعت الىّ وجهاً شاحباً:

— سامحنى ، أنا التى سببت هذه الخسارة . آه ! لا تؤنبنى : يؤلمنى كل شىء يذكرنى بأنك ستترك يوماً ملابس البحارة هذه ! إذ يخيل لى أنك ستستبدل قلبك الحالى بقلب آخر حين تعود إلى ملابسك القديمة ! »

وباستثناء تلك العواصف الصغيرة ، التى لا تهب إلا لفرط الحنان، والتى تهدأ ببعض دموع من عينينا

مرت هكذا ثلاثة أشهر كنا فيها فى نعيم خيالى ، قُدِّرَ أن تقطعه أقل الحقائق بملامستنا إذ شيدنا جنتنا على سحابة.

كذلك ذقت طعم الحب : بدمعة فى عين فتاة !

٢٦

ولكم كنا سعيدين حين نستطيع أن ننسى تماماً أنه يوجد

عالم ثان فيما حولنا ، عالم ثان غير هذا المنزل الصغير على منحدر البوزيليب ، غير تلك الشرفة ، غير تلك الحجرة الصغيرة التى نقضى فيها نصف النهار بين شغل ولعب ، غير هذا الزورق الهادىء على فراشه الرملى على الشاطىء ، غير هذا البحر الجميل الذى تأتينا الريح الرطبة العالية الخفيف ببرودته ونغمات مياهه !

ولكن ، يا للأسف ! كانت تمر علينا ساعات نفكر فيها أن العالم لا ينتهى إلى هنا فقط ، وأنه سيشرق يوم لا يجدنا تحت شعاع واحد من القمر أو الشمس

وإنى مخطىء فى اتهام قلبي بالجفاء حين أقارنه بما شعر به من تلك الآونة . إذ فى الحقيقة ابتدأت أحب جرازيلا أكثر مما كنت أعترف به لنفسى بألف مرة

ولو لم احبها لتلك الدرجة ، لما كان الأثر الذى تركته طول حياتى فى نفسى بهذا العمق والألم ، ولما كانت ذكراها كونت مع جسمى هذا الاتحاد اللطيف المحزن ، ولما كانت صورتها حاضرة ، واضحة بهذه الدرجة فى ذكراى !

ولو أن قلبى لم يكن إلا رملا فى ذلك الحين ، إلا أن زهرة البحر هذه ، تأصلت فيه لأكثر من فصل واحد ، كما يتأصل نبات الزنبق على سواحل جزيرة إيشيا

٢٧

أى عين حرمت من الضياء ، أى قلب جف فى نشأته ، كان لايحبها ؟

فكأن جمالها كان يزداد من الليل إلى النهار بازدياد حبها .

لم تعد تنمو ، بل كانت ظرفا يتم : بالأمس ظرف صبيانى واليوم عذراء أينعت . وكانت هيئتها الهيفاء يحولها الشباب إلى هيئة أرشق وأزكى ، وقوامها يأخذ شيئاً من الاعتدال دون أن يفقد شيئاً من مرونته ، ولم تعد تطأ الارض بقدميها العاريتين بخفة ، بل تسحبهما بهذا التمهل ، وهذا الضنا الذى كأنه يحمل الجسم بكل ثقل أول أفكار المرأة الغرامية

كان شعرها يطول ثانية بعصارة قوية كعصارة النباتات البحرية تحت أمواج الربيع الدفئة ، وكنت أمزح فى بعض الأحيان وأقيس طوله وأشده ملفوفاً على أصبعى فوق ثوبها الأخضر المطرز بالذهب

وكانت بشرتها تبيض وتتلون بنفس ألوان تراب المرجان التى تتغطى بها أطراف أصابعها كل يوم ، وعيناها تكبران وتتسعان كما لو أرادت أن تحيط بأفق ظهر أمامها فجأة

تلك كانت دهشة الحياة حين تشعر «جالاتى» بأول خفقان فى قلبها الصخرى !

وكانت تظهر معى رغم إرادتها حياءً وخجلا فى الهيئة والنظرات والحركات لم تأتها معى من قبل

شعرت بذلك ، ولكننى كنت أضطرب أنا نفسى أمامها ، حتى لقد يظن أننا مذنبان ، ولكننا لم نكن سوى شابين سعيدين

ومع ذلك ، فمن زمن يسير ، أخذ يظهر أو يختبىء لنا شعور بالحزن تحت تلك السعادة . ولم نعلم سبب هذا الحزن ولكن الدهر كان يعلمه

كان الشعور بقصر الزمن الذى بقى لنا نقضيه سوياً

٢٨

وفى بعض الأحيان ، بدلا من أن تعود جرازيلا إلى عملها بعد أن تلبس أخويها ، كانت تجلس بجانب الجدار المحيط بالشرفة ، فى ظلال شجرة من التين تصعد من أسفل الجدار إلى حافته ، وتبقى هنا جامدة ، شاردة العين ، ساعات كاملة

وحين تسألها جدتها إذا كانت مريضة ، تجيب أنها لا تشعر بأى ألم ولكنها سئمت العمل قبل البدء فيه

وكانت لا تحب أن تسأل فى هذه الأحوال ، فتدير وجهها من كل العالم إلا أنا ، ولكنها كانت تنظر إلىّ طويلا دون أن تخاطبنى ،

وتتحرك شفتاها أحياناً كما لو كانت تتكلم، ولكنها تتمتم كلمات لا يسمعها أحد. وتمر ببشرة وجنتيها رعشات تجعدها كما يتجعد سطح الماء الساكن بأول نسمات الصباح

ولكنني حين أجلس بجانبها، وأدغدغ هدب عينيها بريش قلمي، أو بنهاية فرع من اكليل الجبل، كانت تنسى كل شيء وتعود إلى الضحك والتحادث ثانية، ولكن وجهها يعود إلى كآبته وحزنه بعد ضحكها ومزاحها معي.

وأسألها في بعض الأحيان:

— جرازيلا، إلام تنظرين هكذا هنالك، هنالك في نهاية البحر مدة ساعات؟ هل ترين شيئاً لا نراه نحن؟ »

فتجيبني:

— هنالك أرى فرنسا، وراء هذه الجبال الثاجية »

— وماذا ترين جميلا هكذا في فرنسا؟ »

فتجيب:

— أرى هنالك شخصاً يشبهك، شخصاً يسير، يسير، يسير على طريق طويلة بيضاء لا تنتهي، وهو يسير دائماً دون أن يلتفت الى الوراء، دائماً الى الأمام، وأنا، أنا أنتظر ساعات كاملة، آملة أن يلتفت فيعود أدراجه، ولكنه لا يلتفت! »

ثم تخبىء وجهها فى حجرها ولا ترفع ذلك الوجه الجميل مهما ناديتها بأرق الأسماء

أعود اذ ذاك الى حجرتى حزيناً كئيباً وأحاول أن أقرأ كى أسلى نفسى، ولكن كنت أرى دائماً وجهها بين عينى والكتاب ويخيل لى أن الكلمات تنطق فيه وتهتز مضطربة كقلبينا، فكنت انتهى فى أغلب الاحيان بالبكاء وحيداً

وكنت أخجل من شجنى، فلا أقول لجرازيلا أنى بكيت أبداً، كنت مخطئاً، إذ كانت دمعة واحدة منى تفيدها فائدة طائلة!

٢٩

أذكر الحادث الذى أحزن قلبها كثيراً، ولم تبرأ تماماً من تأثيره أبداً

كانت قد اصطبحت من زمن قليل بفتاتين أو ثلاثة من سنها وكانت هذه الفتيات تسكن إحدى المنازل الصغيرة المشيدة فى الحدائق المجاورة، وتشتغلن بإصلاح وكى ملابس مدرسة للفتيات الفرنسيات أنشأها الملك مورا فى نابلى لاجل بنات وزرائه وقواده.

وكانت جرازيلا تتحادث مع هؤلاء البروشيديات أثناء شغلهن من أعلى جدار الشرفة، فتريهن الدنتلات الجميلة والحرائر

والقبعات والأحذية والشرائط التى تأتين بها لاصلاحها لأجل تلميذات المدرسة . وكان حديثها لهن عبارة عن صيحات دهشة وإعجاب لاتنتهى .

وكانت تأتين لمرافقتها إلى الصلاة التى توقع على الموسيقى فى كنيسة جبل البوزيليب الصغيرة .

وأذهب لاستقبالهن حين يتداعى الليل ، وتنبئ دقات النواقيس المتكررة بانتهاء الصلاة . فنعود ونحن نمرح على شاطىء البحر ، ونتقدم إثر الموجة وهى تنسحب ونعدو أمامها حين تعود مغطاة بالزبد على أقدامنا .

يا إلهي ! ما كان أجمل جرازيلا حينذاك ! حين تخشى أن تبلل بوابيجها الجميلة المطرزة بخيوط الذهب ، فتسرع نحوى فاتحة ذراعيها ، كأنها تريد الاحتماء فى قلبى من البحر الغيور الذى يريد إمساكها أو على الاقل لمس قدميها !

٣٠

لاحظت من عدة أيام أنها تخفى عنى شيئاً لاأعرفه من أفكارها ، وكانت تدور بينها وبين صديقاتها محادثات سرية ، كمؤامرة صغيرة لا تشركنى معهن فيها

وحدث فى ليلة بينا كنت أطالع فى حجرتى على ضوء مصباح صغير من الفخار وقد تركت بابى المؤدى الى الشرفة مفتوحاً

لادخال نسيم البحر ، أن سمعت صوتاً ، همساً طويلا بين الفتيات ، ثم ضحكات ضعيفة وأنات خفيفة ، وكلمات غضب ، ثم أصوات مرتفعة يقطعها سكوت طويل ، فى غرفة جرازيلا والاطفال ،

لم أعر ذلك أهمية فى بادىء الأمر ، ومع ذلك ، فان التكلف الذى كن تأتينه فى همسهن ، والسر الموجود بين الفتيات ، أيقظ فضولى ، فوضعت كتابى وأخذت المصباح فى يدى اليسرى وظللته باليمنى كى لا ينطفىء

اخترقت الشرفة بخطوات خفيفة وألصقت أذنى بباب جرازيلا ، فسمعت وقع أقدام تذهب وتجىء فى الغرفة ، وحفيف أقمشة تطوى وتفرد ، وطقطقة إبر ومقصات نساء تخيط ملابس ، وهذه البلبلة وهذا الطنين لاصوات صبيحة ، الذى سمعته كثيراً فى منزلنا حين كانت تتأهب أخواتى للذهاب إلى المرقص .

لم تكن هنالك أعياد فى البوزيليب فى اليوم التالى ، ولم تكن جرازيلا لتفكر أبدا فى المبالغة فى جمالها بشىء من الزينة ، حتى لم أر مرآة فى غرفتها بل كانت تنظر نفسها فى إناء ماء البئر المجاورة للشرفة أو بعبارة أخرى لم تنظر نفسها إلا فى عينى .

لم يقاوم فضولى هذا التكتم ، فدفعت الباب بركبتى ، فانفتح ودخلت حاملا مصباحى فى يدى

صرخت العاملات وفررن ملتجآت إلى أركان الغرفة كالو فوجئن وهن ملتبسات بجريمة ، وكن لا يزلن يحملن في أيديهن أدلة الاتهام، إحداهن خيطاً وأخرى شريطاً وهذه وردا وهذه مقصاً.

أما جرازيلا ، فكانت واقفة وسط الحجرة على كرسى صغير من الخشب ، وكأنها تحولت صخراً لظهورى الفجائى، فلم تستطع الافلات وكان وجهها أحمر كأنه رمانة ، وقد خفضت عينيها لا تستطيع النظر الى ، وهى تكاد لا تتنفس

أمسكن عن الكلام جميعهن فى انتظار ما سأقول . ولم أقل أنا نفسى شيئاً ، إذ كنت غارقا فى الدهشة ومشاهدة مارأيت

كانت جرازيلا قد تجردت من ملابسها التيلية السمكية المطرزة حسب طراز پروشيدا، فتفح على الصدر لتسمح للفتاة بالتنفس وبتنبع الحياة للطفل، وبوابيجها المذهبة ذات الكعب الخشبى التى تتلاعب فيها قدماها العاريتين، وأقراطها التى تشبه السوار فى كبرها ، كل هذه كانت مطروحة على فراشها . وبدلا من هذا اللباس اليونانى البهيج الذى يناسب الفقر كما يناسب الغنى ، والذى يترك بقصره حتى منتصف الساق وفتح صدره وشق ذراعيه ، كل الحرية والنشاط لجميع أجزاء جسم المرأة ، كانت صديقات جرازيلا قد ألبسنها حسب رجائها ملابس وحلياً لآنسة فرنسية من المدرسة تشبهها فى القامة والسن تقريباً

كانت مرتدية ثوباً من الحرير المموج وحزاما وردى اللون ويحيط بعنقها منديل أبيض وبرأسها عصابة محلاة بازهار صناعية وحذاء من الحرير الازرق وجواربا مخرقة تبين لون كعبي قدميها العاريتين

بقيت فى هذا اللباس الذى فاجأتها فيه ، مضطربة كما لو باغتها نظر رجل وهى عارية . وكنت أنظر اليها أنا نفسى دون أن أستطيع تحويل نظرى عنها ، ولكن دون أن تعلمها حركة أو كلمة أو ابتسامة التأثير الذى طرأ علي لرؤيتها فى هذا الملبس

فصعدت الى قلبى دمعة حارة ، إذ أدركت فى الحال فكرة الفتاة المسكينة

خجلة من فرق المنزلة بينى وبينها ، أرادت أن تجرب إذا كان التقريب بين لباسينا يقرب مستقبلينا فى نظرى ، فحاولت تلك التجربة دون أن أعلم بمساعدة صديقاتها ، آملة أن تفاجئنى كذلك ، أجمل ومن منزلتى ، أكثر مما كانت تتصور وهى فى ملابس جزيرتها البسيطة ومنزلتها ، ولكنها أخطأت ، وفهمت ذلك من سكوتى ، فظهرت على وجهها علامات قلق يائس ، تكاد تسيل دموعها التى أظهرت لى غرضها المكتوم وجريمتها وفشلها .

ومع ذلك ، فكانت جميلة كذلك ، إذ كانت فكرتها تزيد

جمالها فى عينى ألف مرة ، ولكن جمالها كان شبيهاً بالتعذيب .

كانت كاحدى عذارى « كوريچى » المصلوبات على أعمدة الخشب فوق أكوام الحطب لتعذيبهن ، وتلتوين فى قيودهن لتفلتن من الانظار التى تدنس عفتهن .

ياللاسف ! كان تعذيبا كذلك لجرازيلا، ولكنه لم يكن كما قد يظن حين رؤيتها ، تعذيب زهوها : بل تعذيب حبها !

كانت ملابس التلميذة الفرنسية التى ألبسنها إياها قد أعدت بلا شك لجسم نحيف وذراعى وقوام فتاة فى الثالثة أو الرابعة عشرة من عمرها ، فكانت ضيقة بالنسبة للقوام الطويل والكتفين العريضتين لجسم بنت الشمس والبحر هذه ، فانشق الثوب فى مواضع كثيرة، على الكتفين والصدر وحوالي الخصر، كقشر شجر الجميز الذى يتمزق على الغصون عند الربيع ، وذلك رغم ما حاولته الفتيات من شبكه هنا وهنالك . ولكن الطبيعة مزقته عند كل حركة ، فيرى فى مواضع كثيرة خلال شقوق الحرير تجرد العنق والذراعين ، ويبرز من الشقوق قماش القميص الغليظ فيتضاد بخشونته مع أناقة الحرير ، وكانت ذراعاها تخرجان من الكمين الضيقين، كفراش وردى يمدد شرنقته ويشقها ، وقدماها المتعودتان على البوابيج اليونانية الواسعة تضغطان على الاحذية

الحريرية ، وشعرها غير متقن الوضع ولا تمسكه الدنتلات والأزهار الصناعية يرفع كل هذه الزينة من نفسه ، ويعطى الوجه الجميل الذى حاولن تشويهه كذلك ، وقاحة فى الزينة ، وخجلا فى الوجه كانا يتضادان تضادا غريباً لطيفاً

كانت هيئتها مضطربة كوجهها ، فلم تجسر التحرك مخافة ان تسقط الازهار من رأسها أو يختلط ملبسها . ولم تستطع المشى لضغط الاحذية على قدميها ، ولما تعطيه من الاضطراب لخطوراتها

ولقد يظن أنها حواء ذلك البحر الذى تسطع الشمس على لجته ، وقعت فى شرك أول زينتها

٣١

ساد السكون فى الحجرة . وأخيراً ، أكثر تألماً منى فرحاً لهذا التدنيس للطبيعة ، تقدمت نحوها مبتسما بسخرية ، وناظراً بهيئة عتاب خفيفة وتهكم لطيف ، وتظاهرت بانى عرفتها بصعوبة فى هذا الزى وقلت لها :

— كيف ذلك ؟ هذه أنت ؟ جرازيلا ؟ آه ! من كان يعرف البروشيدية الجميلة فى هذه (العروسة) من باريس ؟ »

ثم اردفت بخشونة :

— هيا ، ألا تخجلين من تشويهك هكذا لما جعله الله جميلا فى ملابسه الطبيعية ؟ مهما تفعلى فلست سوى بنت الموج ذات القدمين البحريين ورأسك المغطى بأشعة سمائك الجميلة . يجب ان تلزمى الصبر وتشكرى الله على ما أعطاك ، فلن توافق رياش عصفور القفص هذه ، طائر البحر الطلق . »

اخترقت تلك الكلمات قلبها ، ولم تفهم ما فى نفسى من التفضيل المغرم والعبادة لطائر البحر ، فظنت أنى أستهتر بها أن تشبه جميلة من جنسى وبلادى ، وأن كل مجهوداتها فى زيادة جمالها كى تخدع عينى عن منزلتها البسيطة ، ضائعة لا محالة . عند ذلك أجهشت بالبكاء فجأة ، وجلست على فراشها وأخفت وجهها بين يديها ، ثم طلبت إلى صديقاتها بلهجة كئيبة ، أن تخلصنها من زيها المخزى ، وقالت وهى تئن :

— كنت أعلم انى لست سوى پروشيدية فقيرة ، ولكننى ظننت أنى بتغييرى ملابسى لن أخجلك يوماً اذا ذهبت معك الى بلادك ، وها أنا قد رأيت وجوب بقائى على ما أنا عليه ، وموتى حيث ولدت ؟ ولكن كان أولى بك أن لا تعاتبنى بذلك ! »

ثم نزعت عند هذه الكلمات الازهار والقلنسوة وألقتها بعيداً عنها بغضب ، ووطأتها بقدميها وهى تخاطبها بعتاب كما فعلت

جدتها بألواح الزورق يوم الزوبعة ، ثم أسرعت نحوى وأطفأت المصباح كى لا أراها أكثر من ذلك فى اللباس الذى لم يرق فى نظرى

شعرت بخطأى فى مزاحى ، وان المزاح كان جداً ،فسألتها العفو وقلت لها أنى لم اعاتبها كذلك إلا لانى أفضلها كبروشيدية اكثرمنها كفرنسية بألف مرة

كنت صادقاً ، ولكن الطعنة قد أصابت ، فلم تصغ إلىّ وأخذت تنتحب

لم أرها إلا فى اليوم التالى وقد عادت الى ملابسها ، ولكن عينها كانتا حمراوين من الدموع التى كلفها إياها ذلك المزاح طول الليل

٣٢

أخذت تشك من ذلك الحين فى الخطابات التى تأتينى من فرنسا ،ظانة أنها تدعونى الى العودة

وكانت لا تجسر على سرقتها لامانتها وعدم مقدرتها على الخيانة ولو لإنقاذ حياتها ، ولكنها كانت تحجزها فى بعض الأحيان تسعة أيام، وتعلقها وراء صورة العذراء على الحائط بجانب فراشها .

وكانت تظن ان العذراء مشفقة لصلواتها الكثيرة على حبنا تغير محتويات الرسائل بمعجزة، فتحول أمر العودة إلى دعوة للبقاء بجانبها

لم يغب عنى شيء من تلك الاختلاسات الصغيرة الطاهرة التى كانت تزيدنى حباً لها ومعزة ، ولكن الساعة كانت تدنو

٣٣

قرع الباب بشدة فى ليلة من ليالى شهر مايو الأخيرة ، وكانت العائلة قد نامت ، ففتحت واذا بصديقى فـ ... فقال لى :

— أتيت لآخذك معي ، هذه رسالة والدتك ولن تستطيع مقاومتها ، لقد أمرت بإعداد الخيل عند منتصف الليل ، والآن الساعة الحادية عشرة ، هيا بنا ، والا لن تسافر أبداً !

وقد تسبب موت والدتك، فأنت تعلم كم تحملها عائلتك من مسؤولية ذنوبك .

قد ضحت نفسها لأجلك كثيراً ، فضح أنت نفسك لحظة لأجلها . وإنى أقسم لك أنى أعود معك هنا لقضاء شتاء وسنة كاملة، ولكن يجب أن تحضر إلى عائلتك وتطيع أمر والدتك .»

علمت عند ذلك أنى ضائع ، فقلت له :

— انتظرنى هنا »

ثم دخلت حجرتى وألقيت ملابسى فى الحقيبة مسرعاً ، ثم كتبت لجرازيلا قائلا لها كل مايستطيع تعبيره قلب فى الثامنة عشرة من الحنان ، وكل ما يمليه العقل على ابن مخلص لوالدته ، وأقسمت لها كما أقسمت لنفسى أنه قبل أن ينتهى الشهر الرابع ، أكون بجانبها ولن أتركها بعد ذلك . وعهدت إلى العناية الربانية والحب بمستقبلنا الذى لم يحقق . ثم تركت لها مامعى من النقود لمساعدة جديها فى غيبتى

ولما أظرفت الخطاب ، اقتربت بخطوات خفيفة من بابها ، وقبلت الحجر والخشب ، وأزلقت الورقة تحت الباب ، واكتظمت العبرات التى كادت تخنقنى

أمسك صديق بذراعى وأوقفنى وجذبنى ، وفى تلك اللحظة فتحت جرازيلا الباب وقد أقلقها هذا الصوت الغريب . وكان القمر يضىء الشرفة ، فعرفت الفتاة المسكينة صديق ورأت حقيبتى يحملها الخادم على كتفه ، فمدت ذراعيها وصرخت فزعة وسقطت على الشرفة مغمياً عليها

أسرعنا نحوها وحملناها إلى فراشها فاقدة الصواب ، ثم اجتمعت العائلة وبللوا وجهها بالماء ونادوها بكل الاصوات العزيزة ،

ولكنها لم تعد إلى صوابها إلا على صوتى ، فقال لى صديق :

— أنت ترى أنها حية ، والضربة أصابت ، فوداع أطول لن يكون سوى رد فعل مؤلم »

ثم حل ذراعى الفتاة الباردتين من حولى وانتزعنى من المنزل

وبعد ساعة كنا سائرين فى السكون والظلام على الطريق إلى روما

٣٤

كتبت فى رسالتى لجرازيلا عنوانات كثيرة ، فوجدت أول خطاب منها فى ميلان ، تخبرنى فيه أنها سليمة جسما ولكنها مريضة قلباً ، وأنها مع ذلك استسلمت لكلمتى ، وتنتظرنى بأمان حتى شهر نوفمبر

وعند وصولى إلى ليون وجدت آخر أكثر هدوءا وثقة ، وكان بداخله بعض أوراق القرنفل الأحمر الذى ينمو على الشرفة بجانب حجرتى ، والذى تضع منه وردة فى شعرها كل يوم أحد ، هل كان ذلك لأجل أن ترسل لى شيئاً منها ؟ أو كان عتاباً لطيفاً مختفياً فى رمز ، لتذكيرى بأنها ضحت شعرها لأجلى ؟

كانت تقول فيه أنها مرضت بالحمى وأنها تتألم فى قلبها وتتحسن كل يوم ، وقد أرسلوها لتغيير الهواء عند إحدى بنات خالها ، أخت

تشيكو ، في منزل على (الطوميرو)، وهو تل مرتفع نقي الهواء صحي يشرف على ناپلي

بقيت بعد ذلك ثلاثة أشهر لم يصلني فيها شيء من جرازيلا وكنت أذكرها كل يوم ، وكان سفري قد حدد لاول الشتاء المقبل وكان وجهها الحزين الجميل يظهر لي كعتاب أو أسف ، ولكنني كنت في هذه السن المنكرة للجميل، حين يخجل أحسن شعور الفتى من طيشه وتقليده لغيره ، سن قاسية، حين تسقط أجمل نعم الله على الرمال، وتحملها ريح العالم وهي مزهرة : الحب الطاهر والصداقة الساذجة

كان كبرياء أصدقائي المتهكم ، يقاوم في نفسي الحنان الحي الكامن في قرار قلبي، فما كنت أجسر التصريح به او باسم التي تسبب حزني وأسفي وبمركزها ، دون أن أخجل وأعرض نفسي لسخرياتهم

لم أنس جرازيلا ، ولكنها حجبت في حياتي ، فكان هذا الغرام الذي يسحر قلبي يحط من احترامي ، وذكراها التي أحييها في نفسي وفي الوحدة فقط ، تتبعني بين العالم الراقي كتأنيب الضمير

ولكم أخجل الآن من خجلي إذ ذاك ! وكم شعاع واحد من

السرور ، أو دمعة واحدة من دموع هاتين العينين الطاهرتين، تساوى أكثر من كل هذه الانظار ، وكل هذه التهكمات وهذه الابتسامات ، التى كنت مستعداً لتضحية جرازيلا لاجلها!

آه ! لا يستطيع الرجل الشاب أن يحب : انه لا يعرف قيمة أى شىء! لا يعرف السعادة الحقيقية الا بعدفقدها !

هنالك عصير أكثر ، وظل أكثر فى نبات الغابة الشاب ، ولكن هنالك نارا أكثر فى قلب البلوط الشيخ !

الحب الحقيق هو ثمر الحياة الناضج ، والمرء فى الثامنة عشرة لا يعرفه، بل يتصوره فقط ، وفى الطبيعة النباتية تتساقط الاوراق حين تنضج الثمار : ولعله كذلك مع الطبيعة البشرية

قد فكرت فى ذلك أحياناً ، فقد ابتدأ الشيب يعلو رأسى، وعاتبت نفسى لعدم معرفتى قيمة زهرة الحب هذه إذ ذاك . فما كنت الا كبرياء ، والكبرياء أسخف الرذائل وأقساها ، فانه يخجل المرء من سعادته ! ...

٣٥

ذات ليلة فى أوائل أيام نوفمبر ، حمل الى عند عودتى من حفلة راقصة ، خطاب وملف أحضرهما رجل من نابلى ، قال أنه مكلف

بابلاغى خبراً مهما من أحد أصدقائه رئيس معمل المرجان فى نابلى، وأنه أتم مهمته، ولكن الاخبار التى يأتينى بها محزنة، فهو لا يطلب مقابلتى، بل يرجونى أن أبلغه فى باريس استلامى الخطاب والملف

فتحت الملف وأنا أرتجف، فاذا به خطاب أخير من جرازيلا، لا يحتوى الا هذه الكلمات:

« يقول لى الطبيب أنى سأموت قبل ثلاثة أيام، أريد ان »
« أودعك قبل فقد قواى . آه ! لو كنت هنا، لبقيت حية ! »
« ولكنها إرادة الله، سوف أخاطبك دائماً من أعلى السماء، »
« حب روحى ! ستكون معك كل حياتك . »
« أترك لك شعرى الذى قصصته ليلة لاجلك، خصصه لله فى »
« كنيسة فى بلادك، كى يكون شىء منى بجوارك ! »

٣٦

بقيت مكانى جامدا، وخطابها فى يدى حتى الصباح. لم يكن حينذاك إلا أن جسرت على رفع الغطاء الثانى للملف، وكان فيه شعرها الجميل كما أرتنى إياه فى الليل فى منزل بروشيدا، ولا تزال به بعض الحشائش التى علقت به فى تلك الليلة

فعلت ما أمرت به فى طلبها الاخير، وساد من ذلك اليوم ظل موتها على وجهى وشبابى

عدت بعد اثنتى عشر عاماً الى نابلى ، وبحثت عن آثارها فلم أجد شيئاً ، لافى المارچلينا ولا فى پروشيدا، فقد تهدم المنزل الصغير على سفح الجبل، ولم يبق منه الا كوم من الحجارة الرمادية فوق المخزن ، الذى تحمى فيه الآن رعاة المعز أغنامها من المطر، فالدهر يمحو ماعلى الارض سريعاً ، ولكنه لا يمحو أبداً أثار أول غرام فى القلب !

مسكينة جرازيلا ! لقد مضت أيام كثيرة على تلكم الايام، لقد أحببت وأحببت، وقد اضاءت أشعة جمال وحنان أخرى طريق المظلم ، وتفتحت لى نفوس أخرى ، وظهر لى فى قلوب النساء الكنوز السرية للجمال والقداسة والطهارة، التى أحياها الله على الارض ، كى يفهمنا ويلهمنا ويرغبنا فى السماء، ولكن لم يكدر شىء ظهورك الاول فى قلبى فكلما حييت ، كلما اقتربت منك بالأفكار

فذكراك كنيران زورق أبيك، التى ينقيها البعد من الدخان ، فتزهو كلما زادت بعداً عنا

لا أدرى أين ترقد رفاتك ، ولا إذا كان هنالك شخص لا يزال يبكيك فى بلادك، ولكن قبرك الحقيقى فى قلبى. هنا ، أنت دفنت جميعك ! ولا يمر على أسمك سدى ، فأحب اللغة التى يلفظ بها.

ولا يزال فى قرار قلبى ، دمعة حارة تقطر نقطة ، نقطة وتسقط سراً على ذكراك ، فتجددها وتعطرها فى نفسى .

سنة ١٨٢٩

٣٧

ذات يوم فى عام ١٨٣٠ ، كانت الشمس قد غابت عن الانظار ، والليل أرخى سدوله ، فدخلت احدى كنائس باريس فرأيت نعش فتاة قد غطى بثوب أبيض .

ذكرت جرازيلا .... ثم اختبأت فى ظل أحد الأعمدة ، وجعلت افكر فى بروشيدا وبكيت طويلا .

جفت دموعى ، ولكن السحب التى اخترقت مخيلتى أثناء ذلك الحزن لم تختف من نفسى

فعدت إلى منزلى صامتاً ، وحررت كل التذكارات التى سردتها فى هذه المذكرة . ثم كتبت باكياً الأبيات التى عنوانها « الحسرة الاولى »

هذه مذكرة ، أضعفها بعد عشرين عاماً ، مذكرة شعور تفجرت منه أول عين فى قلبى ، ولكن يُشعرَ فيها بعصب داخلى جريح ، ليس إلى التآمه سبيلا .

هذه هى الأبيات ، بلسم جراح ، ندى قلب ، عطرزهرة قبرية ، لا ينقصها سوى اسم جرازيلا ، وكنت اضعه فى بيت ، لو وُجد فى هذه الدنيا ، بلور من النقاوة بحيث يحوى هذه الدمعة ، هذه الذكرى ، هذا الاسم !

obeikandl.com

الحسرة الاولى

على شاطىء يردد الصدى لبحر سورانتا ، الذى يرسل أمواجه الزرقاء إلى جزع شجرة البرتقال ، وعلى مقربة من الطريق الضيق ، تحت السياج المطر ، هنالك حجر صغير ، قليل العرض مهمل ، لا تلتفت إليه السابلة

هنالك تخفى شجرة القرنفل اسما فريداً تحت لفائفها ، اسما لم يردده الصدى أبداً ! ... ومع ذلك ... ففى بعض الأحيان .. إذ يقف الماروقد قرأ العمر والتاريخ بإزاحة الحشائش ، وترقرق الدمع فى عينيه ، فيقول : أواه ! كانت فى الربيع السادس عشر ! فما أعجل وفاتها ! »

ولكن ، لماذا أرجع بنفسى نحو هذه المشاهد المنقضية ؟
فلتدع الريح تئن ، والموج يضطرب
فيا أيتها الافكار الحزينة عودى إلىّ ! فإنى أريد أن احلم ، لا أن أبكى :

يقول : كانت فى الربيع السادس عشر ! » ثم ، فى السادس

عشر : عمر لم يكلل أجمل من جبينها ! ولم ينعكس رونق هـذا الشاطىء فى عين أكثر حباً من عينها !

إننى وحدى أراها ثانية ، كما رسمها الخيال ، حية فى النفس التى لا يفنى فيها شىء .

أراها كما لو كانت عينها تنظر فى عينى ، وقد أطلنا أول محادثاتنا على البحر ، أراها وشعرها الاسود مرسل فى الهواء ينشره ، أراها وظل الشراع متحرك على خدها ، وهى تصغى لغناء الصياد فى الماء ، وتستنشق النسيم البليل ، وتشير إلى القمر المتألق فى السماء ، كزهرة الليالى يبتهج بضوءها الفجر ، أراها وهى تشير إلى زبد الأمواج قائلة لى :

« لماذا يتألق هكذا كل شىء فى الخارج وفى نفسى ؟

إن مدى السماء اللازوردى ، المنتشرة عليه كل هذه النيران ، وهذه الرمال الذهبية ، التى تتلاشى عليها الأمواج ، وهذه الجبال التى تضطرب قممها فى أعلى السماء ، وهذه الخلجان المكللة بالغابات الساكنة ، وهذه الأضواء التى تتلألأ على الشاطىء ، والأغانى التى تتردد على الامواج ، لم تحرك حواسى قبل الآن ، بمثل هذا السرور الذى لا يحد ! فلماذا لم أحلم كهذه الليلة ؟ . . . . . هل أضاء نجم فى قلبى ، كما أضاءت هذه الطبيعة ؟ وأنت ! يا ابن الصباح ،

خبرنى ، هل كانت ليالى بلادك تشبه هذه الليالى الجميلة بدونى ؟ »

ثم تنظر إلى جدتها التى كانت جالسة بجانبها ، فتتوسد حجرها لتنام .

ولكن لماذا أرجع بنفسى نحو هذه المشاهد المنقضية ؟

فلندع الريح تئن ، والموج يضطرب ،

فيا أيتها الافكار الحزينة عودى إلى ؛ فإننى أريد أن أحلم ، لا أن أبكى ؛

ما كان أصفى عينها ! وأطهر شفتها ! وكم كانت سماؤها تفيض على نفسها نوراً ! فبحيرة « نيمى » الجميلة التى لا يعكرها نسيم ، تقل صفاء عن صفاء نفسها ! فيدرك الناس خواطرها قبل أن تدركها هى ، فلم تخفض هدب عينها لتستر نظراً مملوءاً بالطهارة والعفاف ! ولم يكدر جبينها أى قلق . . . . . وهذه الابتسامة الصبيحة ، التى فاضت فيما بعد على فيها ، كانت تتلاعب دائماً على شفتيها المفتوحتين كقوس السماء فى يوم منير ! . . . . . فلم يحجب ظل ماهذا الوجه الجميل ، إذ لم تمر عليه سحب ! . . . وخطوتها المطمئنة المتمايلة ، تتهادى كموجة حرة يهتز عليها ضوء النهار . .

وصوتها ذو الرنين الفضي ، صدى روحها الفتية النقي الطاهر ، موسيقى هذه النفس التي كاد يغني كل شيء فيها ، كان يشرح حتى الهواء الذي يحمله !

ولكن لماذا أرجع بنفسي نحو هذه المشاهد المنقضية ؟

فلندع الريح تئن ، والموج يضطرب ،

فيا أيتها الافكار الحزينة عودي إليَّ ! فإنني أريد أن أحلم ، لا أن أبكي !

طبعت صورتي في قلبها أولا ، كالضوء عند الصباح ، في العين حين تتفتح . فلم تر شيئاً بعد ذلك اليوم ، فمن ساعة أن أحبت ، صار الكون حباً !

كانت تخلطني بنفس حياتها ، وترى كل شيء خلال نفسها ؛ فكنت جزءاً من هذا العالم الذي يطفو تحت عينها ، ومن سعادة الأرض وأمل السموات !

فما عادت تفكر في الزمن أو البعد ، بل شغلت الساعة الحاضرة كل حياتها ، وكانت هذه الحياة قبلي خالية من الذكرى ، وذات يوم كانت كل المستقبل !

كانت تطمئن إلى الطبيعة الرقيقة التي ابتسمت لنا ، وإلى

الصلاة الطاهرة ، فتذهب . وقلبها ممتلئ سروراً لا دموعاً ، إلى الكنيسة التى تحبها ، وتنشرها مع أزهارها : وتجذبنى يدها إلى درجات المعبد ، فأتبع مثالها كطفل متواضع ، ويقول صوتها الخافت :

« صل معى ! فإنى لا أفهم حتى السماء بدونك ! »

ولكن لماذا أرجع بنفسى نحو هذه المشاهد المنقضية ؟
فلتدع الريح تئن ، والموج يضطرب ،
فيا أيتها الافكار الحزينة عودى إلىّ ! فإنى أريد أن أحلم ، لا أن أبكى !

أنظر فى حوض عين من الماء ، يستدير كالبحيرة بين محيطه الضيق ، أزرق صاف ، فى حمى من الريح الجارية والشعاع المحرق ، أنظر رِدْفاً أبيض سابحاً فوق السطح الصافى ، يغمر فيه عنقه فتحيط به دوائر الماء ، تراه يزين المرآة السائلة ، وهو يهتز عليها بين نجوم السماء ! ولكن ، لو طار نحو عيون أخرى جديدة ، يضرب الماء بأجنحته المبللة ، فتمحى السماء من وسط الماء المتعكر ، وتسقط فيه الرياش فتشوبه ، كأن النسر عدو جنسه قد افترسه :

ولم تعد زرقة البحيرة المسحورة ، سوى ماء عكر صعدت فيه الرمال فشابته !

كذلك اضطرب كل شيء فى هذه النفس حين سافرت ، فانطفأ الشعاع ، وصعد لهبه المشرف على الموت ، صعد إلى السماء إلى الأبد !

وما كانت تنتظر مستقبلا ثانياً ، فلم يطل عذابها من الشك إلى الأمل ، ولم تنازع الأمل حياتها ، بل تجرعت دفعة واحدة كأس الآلام ، وأغرقت قلبها فى أول دموعها !

وشبيهة بالعصفور ، الذى يقل عنها طهارة وجمالا ، وهو يضع عنقه تحت جناحه ، عند المساء كى ينام ، فتأزرت بأسها الصامت ، ونامت كذلك ... ولكن ... عاجلا قبل المساء !

ولكن لماذا أرجع بنفسى نحو هذه المشاهد المنقضية ؟
فلندع الريح تئن ، والموج يضطرب ،
فيا أيتها الافكار الحزينة عودى إلىَّ ! فإنى أريد أن أحلم ، لا أن أبكى !

توسدت فراش الثرى خمسة عشر عاماً ، ولم يعد شيء يبكى على ملجأها الأخير ، ومحا النسيان العاجل ، كفن الأموات

الثانى ، محا الطريق التى كانت تنتهى الى تلكم الجهات ، فلم يعد أحد ليزور هذا الحجر البالى ، ولا أحد يفكر عنده أو يدعو ! ... سوى ضميرى ، حين أصعد تيار أيامى الخالية ، وحين أسائل قلبى كل من لم يعودوا به ، وحين ترى عيناى آثاراً عزيزة ... فأبكى ... أبكى فى سمائى نجوماً كثيرة أطفئت ! ... وكانت أولها ، وما زال ضوءها اللطيف ، يفيض فى قلبى بنهار رقيق نقى !

ولكن لماذا أرجع بنفسى نحو هذه المشاهد المنقضية ؟
فلندع الريح تئن ، والموج يضطرب ،
فيا أيتها الافكار الحزينة عودى إلىّ ! فإنى أريد أن أحلم ، لا أن أبكى !

شجيرة شوكية ، صفراء الأغصان ، هى التذكار الوحيد الذى أقامته لها الطبيعة ، تهب عليها رياح البحر ، وتحرقها أشعة الشمس ، كحسرة مرة تتململت فى القلب ! فتنمو فى الصخر دون أن تظله ، وتبيض أوراقها بغبار الطريق . وتزهر عليها فى الربيع زهرة ، زهرة فى بياض الثلج ، تزهر يوماً أو اثنين ، ولكن الريح التى تحاصرها ، تذبلها قبل أن تنشر أريجها ، كالحياة قبل أن ينشرح بها القلب !

ولقد يحط عليها عصفور حنان وشجن ، يحط ليغنى على الغصن المتمايل !

آه ! خبرينى أيتها الزهرة التى أذبلتها الحياة قبل أوانها ، هلا هنالك أرض يزهر فيها كل شىء ثانية ؟

عودى ، عودى إلى هذه الساعات الماضية ،

فذكراك تساعدنى فى التأسى ! إذهبى حيث تذهب روحى ، إذهبى ، أيتها الأفكار الحزينة : قلبى مفعم ، أريد أن أبكى !

كذلك كفرت بهذه الدموع المكتوبة ، عن جفاء قلبى وجحوده فى الثامنة عشرة سنة

ولا أستطيع قراءة هذه الأبيات ، دون أن أعبد تلك الصورة الصبيحة ، تلك الصورة التى ستحملها لى أبداً أمواج خليج نابلى الشفافة الشاكية ... ودون أن أمقت نفسى !

ولكن النفوس تعفو هنالك فى السماء . . . وقد عفت روحها ... فاعف كذلك ... أنت !!! ... لقد بكيت ...

﴿ انتهى ﴾

تم تعريبها فى ١٢ مارس سنة ١٩٢٠ وتم طبعها فى ١٥ يونيو سنة ١٩٢١